إرينا بريشنا

حجود

ترجمة: عُلا عَادِل

الرواية الفائزة بجائزة الأدب السويسرية 2012

رواية

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

إرينا بريشنا

جحود

رواية

تَرجَمَة:

عُلا عَادِل

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

أ.د. علا عادل عبد الجواد/ أستاذ الأدب الألماني والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس، مترجمة تحريرية وشفهية ومنسق لعدة مشروعات ترجمة، ومدير لعديد من ورش الترجمة. صدر لها أكثر من 30 كتابًا مترجمًا لأعمال روائية وغير روائية.

مدير المركز القومي للترجمة من فبراير 2020 حتى أغسطس 2020 ثم مستشار ثقافي ومدير مكتب البعثة التعليمية في النمسا.

.....

جحود

طبعة 2023

رقم الإيـــــداع:2022/28457

الترقيم الدولي: 978-977-821-310-2

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

DIE UNDANKBARE FREMDE by Irena Brezna.

Originally published in the German language as "Die undankbare Fremde" by Irena Brezna.

Copyright © 2012, 2013, Verlag Kiepenheuer & Witsch GmbH & Co. KG, Cologne/ Germany.

With the support of the Swiss Arts Council Pro Helvetia.

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

WWW.SEFSAFA.NET

sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

إرينا بريشنا
جحود: رواية/ إرينا بريشنا، ترجمة عُلا عَادِل
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٢
٢٠٠ ص، ٢٠ سم
تدمك ٢-٣١٠-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص التيشيكية
أ- عَادِل ، عُلا (مترجم)
ب- العنوان
٨٩١,٨٦٣

رقم الإيداع: ٢٨٤٥٧/ ٢٠٢٢

غادرنا وطننا في كنف الظلمة المعهودة، وخلَّفناه وراءنا؛ لنقترب من الغربة المضيئة. صاحت أمي: «يا لها من أنوار كثيرة!» كما لو كان هذا بمثابة الدليل على أننا مُقبِلون على مستقبل مضيء. لم تكن مصابيح إنارة الشوارع تُومضُ بنور برتقالي باهت كما هو الحال لدينا، بل كانت تشع ضوءًا مُبهرًا مثل كشَّافات السيارة. غمر أمي شعور متعة الهجرة كُلية؛ حتى أنها لم ترَ أسراب البعوض، والخنافس الطائرة الصغيرة، والعُثَّة التي كانت تحوم حول قمة المصابيح، وتلتصق بها، وترفرف بجناحيها، وتركل بساقيها رغبةً في البقاء على قيد الحياة؛ حتى تحترق بعد أن تنجذب نحو الضوء الذي لا يعرف الرحمة، فتهوي على الشارع النظيف. كما يلتهم ضوء الغربة الساطع النجوم بدورها.

استجوبنا ضابط برتبة نقيب في معسكر الإيواء، ظل يرتكب أخطاءً لغويةً عديدة. كما أنه كان عاجزًا عن نُطق أحرف مثل الراء، والزاي، واللام، والتاء، وتركيبة حرفي الدال، والجيم، وكذلك حرف الواو. بل إنه لم يتمكن من نطق أسمائنا بالنبرات الصحيحة، لدرجة أنني لم أتعرف على اسمي ثانية بعد أن كتبه في الاستمارة مجردًا من كل النقاط ورموز التشكيل، وعلل ذلك قائلًا:

- «لن تحتاجوا إلى هذه الكماليات الزائدة هنا.»

كما حذف النهايات الدائرية الدالة على اسم المؤنث؛ ليمنحني لقب الأب والأخ اللذين جلسا صامتين، وهما يراقبان عملية الختان التي جرت لاسمي، ويسمحان بها. ماذا علَّني أفعل بهذا الاسم الرجالي الأقرع ؟ شعرتُ بالبرودة.

استند النقيب بظهره على المقعد، وهو يشعر بالرضا وقال:

- «هل لجأتم هاربين إلينا؛ لأننا نتمتع بحرية إبداء الرأي؟»

لم نكن نعرف هذه الكلمة المركبة الطويلة. فهل كان يتعين علينا أن نبدي رأينا لهذا الرجل؛ حتى يمنح كل منا سريرًا وبطانية؟ إذ أن قول ما يجول بخاطرك من شأنه بث الفرقة؛ ممَّا يؤدي بدوره للعزلة، بل والزَّج بك في الحبس الانفرادي.

ظل النقيب ينتظر رأينا دون جدوَى، ثم خفض من صوته؛ ليسأل بنبرة مريبة:

- «ما العقيدة التي تدينون بها؟»

خشيتُ أن يتحالف أبي وأمي مع الشيطان، ويضعا الإيمان بالرب على المحك، إلا أنهما ظلا أوفياء لإلحادهما وأصرا على الصمت.

فالتفت الرجل نحوي، وسألني:

- «بم تؤمنين أيتها الفتاة؟»

- «أؤمن بعالَم أفضل.»

- «أنتِ إذن هنا في المكان الصحيح. مرحبًا بكِ!»

غمز لي، ثم مهَر قدري بخاتم.

قادتنا امرأة ضئيلة الحجم عبر ردهات طويلة. تفحصتني بنظرات الشفقة. بحثت عن تلك الفتاة التعيسة التي تستحق نظرتها، إلا أن العالَم كان خاويًا. هذه المرأة التي لم تكن تضع مساحيق أو أدوات زينة تشعر بالشفقة تجاهي أنا! تحسستُ جسدي فوجدته لا يزال كاملًا. حينئذٍ شعرتُ بروحي وهي تعرج في طريقها نحو سرير اللجوء. كانت مشلولة. وعلى الفور سلَّمونا بطاطين خشنة ذات أشكال مربعة. كان المواطنون القادمون من بلدنا يجلسون على أسرِّة قابلة للطيِّ في صالة ألعاب القوَى. أخذتُ أبحث في عيونهم عن رأيهم الخاص الذي يرغبون في الإفصاح عنه، إلا أنني لم أجد داخل أعينهم سِوَى فراشات عُثَّة معمية. وما إن أطلق شخص إحدَى نِكات الاحتلال، حتى ظهرت ضحكتي المفقودة التي سُرعان ما اختفت ثانية وراء الدموع. فقد بكيتُ على النُّكتة الأخيرة القادمة من بلادنا الديكتاتورية. وها نحن الآن ينبغي أن نعيش بديمقراطية خالية من النِّكات. ظل أهالي بلادنا يتحدثون عن دول غير معروفة، حيث الحياة أفضل. تركنا البطاطين ذات الأشكال المربعة مطويَّة على حالها؛ لننطلق مغادرين المكان مُجددًا.

يتمثل ما يثير الجنون في قصتنا هذه في أننا تعرضنا للهجوم من أقرب أصدقائنا، وبينما كُنا نلوذ بالفرار من قوات الحلفاء، ضللنا الطريق ليؤول بنا الحال في إحدى البلاد المُعادية. ثم وصلنا قبل منتصف الليل مدينة ما. حصلنا على غرفة خاصة بنا في نُزُل للاجئين. لم يكن مسموحًا لنا سِوَى بطلب أرخص الأطعمة، التي

لم تكن سيئة إلى حد كبير. فالأطعمة الأغلى سعرًا لاشك وأنها كانت بِدع. إذ كانت أطباق جدتي القومية تُعدُّ هنا أطعمة غير صحية. كان هناك جُبن يابس، ولكن لم يكن من المفترض ذكره.

- «لا تتحدثي حديث الجُبن». هكذا قالت المعلمة في دورة تعلم اللغة.

هناك تعرفتُ على الفتاة «مارا» القادمة من بلادي، ونشأت بيننا صداقة. كنتُ أحسدها على حمَّالة صدرها المبطنة بالقطن. وقد كانت نعم الصديقة، فما لبثت أن سرقت لي واحدةً مثلها. إذ كنا نذهب بعد انتهاء حصة اللغة؛ لنتفحص الملابس المعروضة في الشوارع خارج المحال، متروكة لحالها عرضة للسرقة مثل الفتيات المغتربات. نساء نحيلات يتَّسمْنَ بالجدية، ويرتدين بناطيل كتان مُجعَّدة، ولا يضعن أي مساحيق أو أدوات زينة مثل اسمي الرجالي، كُن يمرُرْن بجوار التنورات القصيرة المصنوعة من قماش التافتان اللامع، والسترات المخملية الذهبية البرَّاقة دون أن يُعرنها أي انتباه.

قالت مارا:

- «هؤلاء لسن نساءً، وإلا لكُن انقضَضْن على الملابس. كم من المؤسف ألا يرغب فيها أحد.»

بعد أن جلبت مارا العار على شعبنا، كتبتُ لها في إصلاحية الشباب ما يلي: «عزيزتي مارا، يا له من ظلم ألا تتمكني من حضور

وقت التخفيضات بالمحال. حيث تعتلي التنورات القصيرة لافتات أسعار حمراء أشبه بالعيون التي أدماها البكاء.»

لم تعد مارا بعد ثلاث سنوات، بل بعد ثلاثة أسابيع. إذ كانت هناك تخفيضات في المحاكم أيضًا.

حذَّرت مديرة خدمات الترجمة الشفهية الجيش الدولي من مُقدمي الخدمات اللُّغويَّة نظير أجر بالساعة قائلة:

– «ليس عليكم سِوَى الوساطة دون تدخل.»

إنها ليست عالقة بين شق القارات، ولا تعرف ذلك الدَّوِي الذي يحدث عند اصطدام حضارات ببعضها. فأنا أُذكِّر نفسي قبل كل تكليف عمل: انتبهي جيدًا، دَعِي الضفة تبقَى على حالها، ولا تجعلي من نفسكِ جسرًا مستعدًا للخدمة في أي وقت، وإلا ستجدين من يطأكِ، ويلتف حولكِ حتى يُسقطكِ. فلتكوني عَبَّارة لُغوية تقود الركاب إلى الضفة الأخرَى، وعندما ترسين، امحي وجوههم من الذاكرة.

إلا أن هناك شيئًا ما من كلا الضفتين يظل عالقًا بسيدة العَبَّارة. فأنا أترجم من ثلاث لغات. وحين أتلقى تكليفًا بالعمل، أعتلي درَّاجتي، وأحدس على صوت صرير عجلات الدرَّاجة البلد التي يأتي منها رُكَّابي اليوم. كم أحب هذه اللحظة التي يقف فيها الشخص أمامي؛ لتتكشف اللغة. بل إنني كثيرًا ما أُدرِك اللغة قبل ذلك بعدة ثوان. إذ إنني أرَى من الهيئة التي يتخذها الفم نوعية التراكيب الصوتية التي تَشَكَّل منها. حينئذ أُحيي هذا الشخص بينما تعني التحية في حد ذاتها اللغة ضمنًا. اللغات كيانات. تعيش بيننا وتتسكع، وتتقافز، وتصلصل، وتتعثر، وتئز. ونحن نُغذي اللغات، ونكسيها حتى تشبع أو تصبح رثَّة، تعاني من

سوء التغذية أو تكون أنيقة الملبس. عندما ينتابني صداع الرأس، أُصبح مرهفة السمع بشكل أكبر تجاه الأصوات. إذ يشق الصوت الغاضب والحاد رأسي نصفين، فأغلق عيني من فرط الألم. وحينما تكون اللغة ناعمة وطيِّعة، أسبح بداخلها، وأتعافى.

تجلس السيدة الحُبلَى وزوجها في غرفة الانتظار بعيادة أمراض النساء والتوليد، لأتعرف بدوري على الزوجين بسبب حالة الضياع البادية عليهما، أتوجه نحوهما، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي. إلا أن التوتر بدا واضحًا على وجهيهما على الفور. يُعدُّ الابتسام على الملأ بمثابة الأمر الذي يبعث على الريبة في المكان الذي جاءا منه. مَنْ يبتسم لا بُدَّ وأنه يريد شيئًا. وما إن استلقت السيدة على كرسي فحص أمراض النساء، ووثَّقت المرضة حول معدتها أربطة سوداء من جهاز ما، أصبحت السيدة مقيدة بقيود حالتها. لا يمكنني طوال أيام نسيان صورة المرأة الحُبلَى، فأراها أمامي أيًّا كان ما أفعل، ويشغَلني أمرها إذا ما كانت ستفهم في خضم آلام الولادة كلمة «ادفعي». أحاول أن أُهدِّئ نفسي، وأقول: بالتأكيد نعم، عندما تصيح القابلة بلطف: «فلتدفعي!» ستدرك المرأة معنى الكلمة من حزم الصيحة وهي تضع. أسمع حينئذٍ صرخة فتتهدل البطن البارزة. في هذه اللحظة يرن جرس الهاتف؛ ليطلب مني أحدهم التوجه على الفور إلى غرفة الولادة.

صاحت القابلة: «لقد انفتح عنق الرحم باتساع ثمانية

سنتيمترات،» ثم أمرتني بالخروج.

سألت الطبيبة الزوج الواقف في الردهة أمام الباب السميك في عجلة:

- «أي حالات تشوهات أو توأم أو توأم ثلاثي في العائلة؟»

- «لا.»

- «مرض السكري؟ مشاكل في القلب؟»

- «لا، لا.»

- «هل هي تتعاطى عقاقير مخدرة؟ ماذا عن الكحول؟ هل تُدخن؟ هل تعاني من الاكتئاب؟»

- «إنها بصحة جيدة.» هكذا صاح الرجل بصوتٍ عالٍ.

انتابتني حالة من تشوش الوعي وفقدان النُّطق. فقد أصاب عنق الرحم الذي انفتح اللغة لدي في مقتل وأفقدني إياها. كانت هناك أصوات صرخات تتسلل إلى مسامعنا على فترات ليست متباعدة، أشبه بصيحات البومة. وفجأة ساد الصمت لنسمع بعدها صوت بكاء طفل منخفض. عانقتُ الزوج وقلتُ:

- «ها قد فعلتها.»

رفع الرجل يديه إلى السماء وقال:

- «أدعو الله أن يحقق لكِ كل آمالِك.»

أخذ يعبث في حقيبة ظهره حتى أخرج ثمرة بطيخ وأعطاني إياها. أصبح وجهه أشبه بالمصباح المنير، وبرزت وجنتاه كما لو أن أحدهم ملأهما بغاز الضحك؛ لتتمدد بعد ظهيرة ذاك اليوم الصيفي بدلًا من تمدد المعدة وانتفاخها. في غرفة الولادة كان هناك رف تكومت فوقه المشيمة في شكل تل باللونين الأسود والأحمر، أما الأم الشابة فكانت تستلقي وهي عارية وصامتة، بطنها مسطح، وقد مالت برأسها على أحد الجانبين، بينما أبقَى المولود عينيه مفتوحتين.

أعفيتُ كافة اللغات من العمل، والتهمتُ ثمرة البطيخ عند عودتي إلى المنزل.

سقطنا في براثن ماضي ما قبل ثورة ما. إذ لم تنادي الشعارات المدوَّنة على الجدران بإزالة الطبقات الاجتماعية، بل كانت تدعو إلى الاستلقاء على مرتبة متعددة طبقات الرغوة. ولم يكن الرجل ذو الهيئة الجادة المُصوَّر على أحد الملصقات والذي يَعِد قائلًا: «نحن نهتم لأمرك،» يُفصح عن أن اهتمامه يجب أن يُشترَى. بينما أجبرتنا ربة منزل مبتسمة على أن نجثو على ركبتينا؛ كي نُلمِّع الأرضية بقولها: «الأفضل لكم.»

قالت مارا غاضبة:

– «هل تركنا بلدنا كي نحظَى بحرية الاختيار بين أدوات نظافة سامة؟»

لم تكن هناك حشود من البشر؛ كي نندس بينها كما كان الحال ذات يوم في مظاهراتنا من أجل رفعة شأن الطبقة العاملة في المصانع. فهنا حمل اثنان من ذوي الشعر الطويل لافتة مكتوبًا عليها «الحق في الكسل». وكانوا جادين في ذلك كما لو كانوا يعنون العمل. ذهبتُ مع مارا إلى حيث يتدافع البشر فرحين. إلا أن صالة السينما لم يكن بها سِوَى حفنة من الرجال. ونظرًا لأن النساء في هذا البلد لم يكُنَّ يتمتعن بحق الانتخاب، فلم يذهبن إلى السينما. لم يكن الفيلم سياسيًّا على الإطلاق: صديقتان تحتسيان

القهوة، وتتناولان الكعك مع رجل في غرفة المعيشة، وما إن خلعتا حمالتي صدريهما حتى اقترب المتفرجون منا. وعند عرض مشهد الخيال العلمي الذي بدأ فيه الرجل يحل أزرار بنطاله ركضنا نحن الاثنتان.

قالت مارا:

- «لن ندع أحد يدعونا لتناول الكعك أبدًا.»

ولكننا لا نرى مساحة الخصوصية سِوَى في تلك اللافتات المعلَّقة في كل مكان على الأسوار والأعمدة. فأهل البلاد لا يعرضون على الأغراب الوافدين إمكانية الحصول على الحق في التكاسل والاسترخاء معهم في مجموعات الأرائك الوثيرة الخاصة بهم. في المقابل كان هؤلاء يتمتعون بالدخول المجاني إلى مبنَى مهيب أشبه بمبنَى المحكمة العُليا، ومتحف تاريخ الطبيعة، ومحطة القطار الرئيسة في آنٍ واحد. إذ تُعرَض هنا في طوابق متعددة أسفل قُبة زجاجية أغراض تحمل لافتة أسعار صغيرة، معظمها أغراض لا فائدة منها، لكنها مصنوعة من كافة الخامات التي قد تخطر بالبال، وتتبوأ مكانها بفخامة وسط الأضواء كما لو كانت تعتلي عرشًا. إنها شهود على الحضارة المزدهرة. أصبحت بمثابة الأغراض الأصلية من خلال وضعها ضمن مجموعة منتقاة. يا له من تنوع في الأنماط والأشكال البينية تلك التي تنشأ من خلال التبديل. لدينا لم يكن هناك – كما كان الحال منذ الخليقة – سِوَى نوع واحد من

الخبز، وطلاء شفاة واحد، وأم واحدة، وحزب واحد، ونوع سمك معلب واحد، ونادرًا ما كنا نجد شراب نايلون.

يا لها من قسوة تجاه الأغراض أن نتخير واحدًا منها، ونخذل كل الأغراض الأخرَى. شققتُ طريقي للخروج من المبنَى مترنِّحة، ثم جلستُ على أريكة خشبية في المنتزة، وأخذتُ أنتزع الفكَر من فوضاها داخل رأسي، حتى بقِيَت أمنية وحيدة. وأجبرتُ نفسي علي التظاهر بالعمَى، ودخلتُ المتجر مرة أخرَى، ولكنني حتى عندما تجاهلتُ الأغراض كانت تناديني. يتعين عليك أن تكون أعمَى وأصم؛ كي تتسوق هنا. ربطتُ حول خصري حزامًا عريضًا قبل موعد إغلاق المتجر بقليل، وأهديتُ باقي المال لرجل جلس على الرصيف منبوذًا من الأغراض. كان شعر ذقنه أشعث، وكلبه يستلقي متكورًا ميتًا بجانب طبق طعامه الفارغ، مثل أحد الأغراض، ولكنه دون لافتة سعر. إذا كان المشردون مصنوعين من البلاستيك الملون الناعم لكان هناك من يزيل التراب عنهم، ويطري عليهم، ويدللهم حتى يُباعوا عن آخرهم. إلا أن سوء طالعهم يكمن في أنهم ما يزالون أحياء ولا يلمعون.

قالت مارا إنه هناك في مكان ما يمكنك إلقاء نظرة على دواخل البيوت، وهناك نوافذ عرض تجلس بها نساء كما لو كُن أغراضًا، وهُن يرتدين ملابس داخلية كثيرة الثنايا، ويرتدين أحذية برقبة. ولا يعمل الرجال على تحريرهن من هذا الوضع، بل يستأجرونهن لفترة وجيزة، ثم يعيدوهن حيثما كُن. ولا تحاول النساء الهرب؛

فقد أصبحن بالفعل مثل الأغراض الثابتة على وضعها. ونظرًا لأن الأشياء تشكل الأغلبية في ظل الديمقراطية، فهي تتمتع بالسلطة فيخدمها البشر، ويكرمونها بالرقم ٩,٩٩ وتنويعاته. فهم يخشون الأصفار مثلما يخشون المشردين. من كان منهم صفرًا يصبح على الفور مشردًا.

ها هي تجلس في الغربة وحيدة داخل غرفة مع ابنتها التي تصرخ، وتكاد لا تخرج بها من هذه الغرفة؛ فهي تخجل من صراخها.

سألتها طبيبة الأعصاب:

- «هل شعرتِ بالسعادة حين رأيتِ ابنتكِ لأول مرة؟»

- «أحسستُ بالراحة.»

- «هل كنتِ عصبية أثناء فترة الحمل؟»

بدأت السيدة في البكاء. فاعتذرت الطبيبة؛ لأنها اقتحمت ماضيها. كان صوتي يرن بشكل متساوٍ بكلتا اللغتين. كما أنني أحرص على التواصل البصري؛ لذا أحركُ رأسي تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار. فالتواصل البصري من مقومات المهنة. بل أكثر من ذلك، فالنظرة في حد ذاتها كانت تُعدُّ جزءًا من التاريخ المرضي بعد ظهيرة ذاك اليوم. إذ أن الطفلة ذات العامين لم تنظر مطولًا إلى أمها، ولم تُبدِ الرضا في نظرتها أبدًا.

أثناء الحرب كان المحتلون، وبعد الحرب كان أهل البلد من المتعاونين مع الأعداء، يقتحمون البيوت وقت الفجر؛ ليخطفوا منها أحدًا، ويبيعوا الجثث المشوهة للعائلات. كانت نادرًا ما ترَى زوجها؛ حيث كان يقضي كل ليلة في مكان مختلف، مرة في الغابة، ومرة لدَى الأقارب. ولكن ذات يوم حين كانت حُبلَى في شهرها

الثالث، وأعادوه بعد خمسة أيام نظير عشرة خرفان. وهي لا تعرف ما فعلوه به في حجرات التعذيب هناك. إلا أنه أصبح شخصًا آخر بعدها، ولم يرغب سِوَى في الرحيل.

اجتازت المرأة الحُبلَى وزوجها الحدود ليلًا مع مهربي البشر مرورًا بكاميرات الأشعة الحرارية. كان الخوف يعتمل داخل معدتها ويعتصرها، بينما قبع الجنين في أقصَى أطراف بطنها. وقد انهارت في معسكر إيواء اللاجئين. انتابها شعور وهي في حجرة المشفَى ليلًا، حيث ترقد وسط الغربة الكبرَى، كما لو كانت وحيدة في الكون بأكمله. فارتفع ضغط الدم ليصل إلى السماء. لم يكن موعد الولادة قد حان بعد، ولكن الأطباء قالوا إن الطفل يجب أن يتحرر من هذا الضغط.

كان الزوج يختلط برجال من أهل بلده، ويتحدث معهم في السياسة، ويحضر دورة لتعلم اللغة، بينما تبقَى هي مع الطفلة في الحجرة الحارة والرطبة. فكانت تُبقي الشباك المنزلق نصف مفتوح حتى أثناء النهار. لم تصرخ أبدًا حتى عند سقوط القنابل. إذ لم يكن من اللائق أن تفقد رباطة جأشها. وها هي ابنتها تحمل صرخات الأم المكتومة؛ لتخرجها إلى العالم في شكل أصوات لا على شكل كلمات. أصاب الأم البكم، فهي تفكر في الوطن الذي خلَّفته وراءها. كانت فِكَرها تنساب كما لو أنها تصدر عن موضع تسريب. لم تتمكن الابنة من اعتبار العالَم بمثابة المكان الرحيب، بل أُجبرت على مواجهة ضيق الخوف. فجاءت نظرتها على العالَم

ضيقة.

«اضطراب طيف التوحد»هكذا جاء تشخيص طبيبة الأمراض العصبية بعد عدة أسابيع.

اكتست عينا الأب المحدقتين باللون الأصفر الباهت، واختفَى العنق في الجذع كما تهدلت ذراعاه. أخذ العرق يسيل على جبينه، ومن إبطيه كثيفي الشعر. فعقله لم يدرك ما يعنيه «طيف التوحد»، بينما فهم جسده ذلك، وتظاهر بالموت. انسابت بعض الكلمات منه، حيث ذكَّرته التعاسة الجديدة بالشقاء القديم، إذ تذكر كيف ساقوه في جوال مليء بالرمل، وضربوه على رأسه حتى وقَّع على إقرار بأنه سينفذ أي تعليمات، حتى وإن كانت بالقتل. حينها استسلم، وتجمد جسده كما هو حاله الآن. أصاب العمَى إحدَى عينيه، ورأسه يهدر دائمًا. حتى الشعور بالخوف لا يزال حاضرًا. إنه يشعر بأن الحياة تعاقبه، ولم يَعُد بالإمكان إيقافه، وأخذ يسب ويلعن تلك الشقة ذات الحجرتين الكائنة في شارع مزدحم، ويلعن مكتب الشؤون الاجتماعية الذي يضغط عليه؛ كي يبحث عن عمل.

«لم أتعلم أي شيء. فقد كانت الحرب دائرة، كما أن اللغة المحلية هنا تأبَى على عقلي.»

أخذت الابنة تضرب بمكعب خشبي على الأرضية؛ حيث انتابتها

نوبة غضب، وهو ما ارتسم على تعابير وجهها، كما كانت تجزُّ على أسنانها. لم تكن تراني، فأنا مجرد مكعب كبير لا يستطيع عقلها استيعابه. هي تتعامل بانتقائية ومثابرة، وتستطلع بهوس كافة التفاصيل، ولن تسعد مُطلقًا بسبب روعة ازدهار الورود في الربيع.

«إنها لا تطيع الأوامر. تُرَى هل دللناها؟» تنهدت الأم، وأردفت قائلة بدافع الخوف من أن يعتبرهما الدين وبعض الناس سيئين، ولم يؤديا واجباتهما:

- «نحن متشددان ونضربها أحيانًا، وهو ما يهدئها.»

أوضحت لها الطبيبة السبب في ذلك بقولها:

- «لأن هذه واحدة من لغات الجسد.»

- «إنه خطأ طبيب الأطفال. لقد سألته إذا ما كانت شربت الحليب بقدر أقل كثيرًا من المطلوب، فأشاح بيده. بينما كانت ابنتي تصرخ من فرط الجوع.»

قالت الطبيبة بهدوء:

- «لا يتسبب الجوع في التوحد.»

فعارضها الأب قائلًا:

«أعرف ما الجوع. لا يصبح أحد ذكيًّا بسبب الجوع.»

وُلِد الكثير من الأطفال مشوَّهين في هذا البلد بعد الحرب.

حيث كانوا يدسُّونهم في دِلاء، ثم يُخفون هؤلاء الأطفال المصابين بمتلازمة داون في البيوت. الكثير من الحالات الشاذة مرة واحدة. أضرار جانبية، أو بالأحرى أضرار مصاحبة. فالطفل المعاق ينتهك شرف العائلة، ولكنه لا ينتهك بأي حال من الأحوال شرف الجناة.

رفعت الأم ابنتها عاليًا:

- «يجب أن تصرخي في قاعات المؤتمرات. هذا هو المكان المناسب لذلك.»

انتقلنا إلى شقة في مبنَى جديد على أطراف المدينة. حصل والداي على عمل في الطابق الثاني عشر لإحدى الشركات المُصنِّعة للألوان الكيميائية. كانت أمي فخورة بأن العالَم أصبح ملونًا بفضل هذه الشركة. ذهبت معي بعد حصولها على أول راتب شهري لشراء الأثاث. في قبو أحد البيوت المُخصَّصة لعائلة واحدة، عرض علينا صاحب البيت أغراضًا قديمة لا حاجة لها لديه، وحدد سعرها الذي قابلته أمي بهزِّ رأسها رافضة وهي تنقر بلسانها. وكلما نظرإلينا بانتباه أكثر، شعر بمزيد من الحزن. حتى أنه خفض السعر كما لو أن ذلك من شأنه يجعله أكثر فرحة. فخفض السعر لدرجة جعلت أمي تومِئ بالموافقة. انتاب هذا الرجل الخجل منا بسبب بيته الصغير، والسلام الذي يعيش فيه، والخجل لأنه لم يتمكن من أن يفعل شيئًا حيال الظلم الذي عانى منه بلدنا، بل وكان في أشد الخجل؛ لأن أمي فرحت بقطع أثاثه. ورغم أنه كان مضربًا، إلا أنه حافظ على كرامتنا، ولم يذلنا بأسعار مضحكة. لم أكن أعرف أن هناك نوعًا من الخجل المحترم، وكان هذا هو أسلوب الترحاب بنا في الغربة في خضم هذا الخليط البرجوازي. وكما هو مألوف في مراسم التحية، فقد كانت هناك هدية فوق كل ذلك. فحين سألت الرجل عن سعر كليم أحمر رفعه برقة من على الأرض كما لو كان طفلًا رضيعًا وقال:

- «إنه لكِ.»

قالها دون أن يتنهد، أو يطبع قبلة رقيقة على جبيني. هكذا تعلَّمتُ أن المشاعر الطيبة هنا تتحرك، وهي مموهة، وصامتة مثل الأنصار والموالين. في المساء استلقيتُ على الكليم، وبكيتُ. ظل البكاء منذ ذلك الحين يزورني مرة أسبوعيًّا. كنتُ أفتح له الباب؛ لنظل في رفقة بعضنا طوال الليل. حتى اكتشفتُ في إحدى هذه الليالي أنني غنية؛ إذ كنتُ أمتلك شيئًا لم يكن لدَى ذلك الرجل الخجلان: كان لدي المصير المأساوي. ولم يكن يتعين عليَّ القلق من فقدانه، أو السعي لرفع قيمته على حد سواء. فالمصير المأساوي كان من الممتلكات الثابتة. فهؤلاء الذين لم يمروا سِوَى بمآسٍ صغيرة، ينزعجون بسبب صغائر الأمور باستمرار.

لم نعُد مهددين بضائقات معيشية، فمسحوق الغسيل متوافر، والسيارات، ومسحوق التنظيف. وأصبحت أمي على قناعة بأننا سعداء الحظ.

وكانت تغضب بسببي، وتقول لي:

- «ماذا بكِ أيتها العابسة، فلتضحكي.»

منذ أن فقدتُ جلد الصُحبة الواسع، تغلفتُ بوشاح الشفقة لحالي الضيق، ودسستُ نفسي داخل رداء الاستياء من ما هو ليس مألوفًا. شعرتُ كأنني شيء وضعته أمي في بيت غريب، كأنني عروس قاصر رجع بها الزمن مائة عام متزوجة ببلد، أشبه بالزواج برجل صارم وكبير السن. يتعين عليَّ أن أحبه، وأحترمه، وأتحمل العيش معه مدَى الحياة. لقد تعرَّضتُ للخيانة في كل شيء يصنع

الإنسان. فأمي لم تعرِض علي مائة أمير، ولم تسألني: «مَنْ منهم تريدين؟» ولم تسأل: «هل ترغبين في الزواج من الأساس؟»

بل قالت بحزم:

– «لا وجود للقمع هنا.»

بالنسبة لي كان بلدي لغة أم ملتوية، ضحكات مع صديقات، انتماء وتبعية بديهية، تيار دافئ حملني معه، بعد أن كان لي خياشيم، وفجأة ألقَى بي على ضفاف الماء، وسمعتُ نمو الرئتين، وتسبب لي كل نفس في ألم. واصل الأخ ضربي كما لو أننا لا نعيش في مجتمع إنساني، فتركتُ البيت.

كان العالَم داخل «الأنا» و«البلد الغريب» مُحطمًا. وقد أطلقتُ عليه مُسمَّى «زوجي». عندما كنتُ أنظر إلى «زوجي» كنتُ أرى ما لا يراه. لم يكن لديه وجه قمر، فوجهه كان حبة قمح طولي وجاف. لم أستطع الخلود إلى الراحة فيه. إذ كان مشغولًا بالتنبيت، والتزهير، والإنضاج حتى الحصاد التالي، وما بعد التالي، وما بعد بعد التالي. كيف كان هذا الوجه ينام؟ كنتُ أريد أن أحمله بين يدي وأسوِّيه، لكنه كان يُخيفني. كانت الأفعال تنساب من كلماته. إذا ما طرأت فكرة لم يكن يدعها تُحلِّق، فهي لم تكن بالونة للفرجة، لذا كان يُمسك بها على الفور، ويشدها نحو الأرض، ويُخضعها لخطة. توقيت زمني، تحديد موقع، خطة سير، تأمين ضد الصدفة. وقد كنتُ أرَى أنني كي أشعر بأنني في بيتي هنا يجب أن أجعل «زوجي» من بين كبار السن، الذين يفضلون سرد الحكايات،

ويتعلقون بالأحلام أكثر من الأفعال. تكدَّست هذه المهمة أمامي مثل قمة جليد لا تتزحزح، بعد أن ظهرت من بعيد في أحد الأيام صافية الأجواء.

تسير عربة المساجين ذات الشبابيك المعتمة إلى داخل الفناء. صعدتُ السلالم، وجلستُ أتصفح إحدَى المجلات الاجتماعية في غرفة الانتظار، وكانت تلك المجلة هي الشيء الوحيد المُلوَّن في هذه المؤسسة. أخذتُ أقرأ قصة جريمة بشكل عابر حتى ظهر شرطي مزاجه معتدل.

- «ما الحالة اليوم؟»

- «جريمة منظمة. إنهم يأتون إلى هنا كي يسرقوا. نحن لسنا محل اخدم نفسك بنفسك، وخذ ما تريد.»

دلف المتهم الشاب إلى الداخل، وعيناه زائغتان. كان يرتعد وهو يغطي قفصه الصدري العاري بسترة من جلد الماعز.

- «أنا في مرحلة انسحاب المخدر. فهل سيطلقون سراحي؟»

حملق المحامي بعينيه البُنيتين المندهشتين في الملف. وقد انتصبت موجات شعره البُني من فرط القلق.

- «لا تشكل سرقة ثلاث زجاجات عطر سببًا لإبقائه في الحبس.»

- «لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك. أعاني القشعريرة والبرودة الشديدة، وضغط الدم لدي يرتفع، فأنا لم أتعاطَى شيئًا منذ يومين.»

- «كم مرة يتعين عليكَ تعاطيه؟»

- «كل أربع أو خمس ساعات. فالهيروين هنا ملوث، وتأثيره لا يبقى طويلًا. إنه شديد النقاء في بلدي، حتى أن الجرام يكفي لأسبوعين.»

جاء وقع الكلام أقرب إلى الشعور بالوطنية. وبعده تغيَّرت ملامح وجه المتهم.

عندما دق الجرس دخلنا قاعة المحكمة.

- «أطلب من المحكمة ومن بلدكم الصفح. لقد غُرِّر بي، وأنا أعدكم أنني لن أسرق ثانيةً أبدًا. كلمة شرف.»

زينَّتُ حديثه، وأضفتُ إليه كلمات مثل «المحكمة الموقرة» و»بلادكم الرائعة» وعند ذكر «كلمة الشرف» تعثر صوتي من فرط التأثر. إلا أن تلك الشفقة الغريبة أيقظت نوعًا من الريبة. وحده المحامي ظل ينصتُ إلى نغمة اللغة الأجنبية الغريبة عليه، ويستحسنها ثم ألقَى مرافعة دفاع ملتهبة الحماس.

ينص عقد الترجمة الشفهية على الالتزام الحرفي بما يُقال ونقله كما هو. وتكون العقوبة بالحبس لعدة سنوات جزاء تعمد الترجمة الخاطئة. كما يتعين علينا الحضور في الموعد بدقة، والظهور بمظهر لائق. ولكنني غير مهندمة على الإطلاق بالنسبة لهذه المهمة المنمقة. يدفعني مصير الآخر نحو البحر المفتوح، وتعصف الرياح بعواطفي وفِكَري.

طلب المتهم أن يدخن سيجارة في الردهة.

- «نحن لسنا هكذا.» قالها الشرطي، ودخن معه سيجارة هو الآخر.

أخذ الرجل الشاب يحكي قائلًا:

- «أكره موزعي المخدرات. إذ يجلس أحدهم على محطة القطار، ويلعب بلسانه، ويعني بذلك: لدي كوكايين. كم أرغب في دك عنقه.»

حاولتُ معالجته نفسيًّا، وقلتُ:

- «ولكن هذه فكرتك الراسخة.»

- «نعم، لا بُدَّ وأن يكون لدينا إرادة. ولكن المخدرات تدمر الإرادة. قديمًا كنتُ ألعب الملاكمة، وكان وزني مائة كيلو جرام. إذا لم يطلقوا سراحي اليوم، سأقضي ليلة سيئة للغاية. فكم من شخص قضَى نحبه بعد أن ابتلع لسانه!»

يتحدث المتهم عن المخدرات باحترام وكره، فهي بالنسبة له العدو والصديق، الأب والأم، الجنة والنار، والحياة نفسها. وهو لم يكتشف لدَى نفسه سِوَى جسده الذي يريد أن يهديه للمخدرات حتى تدمره. وقد استعان المتهم بالتفاخر بقدرته على تحمُّل الدمار ببطولة؛ كي يجعل منه مادة للحديث.

- «إن مشكلته هي كره الذات. هذا هو مربط الفرس، وليس الحبس أو إطلاق السراح. كيف يمكنه أن يتعلم حب نفسه؟» جاء سؤالي هذا حالمًا. ولكن المحامي طلب مني أن أترجم

وحسب.

- «لقد تقدَّمتَ بطلب لجوء، وحددتَ السبب بأن بلدكَ تدور بها حرب. ما الحرب التي كنتَ تعنيها؟»

- «المشكلة أن هناك مصنع هيروين.» أغمض المتهم عينيه بينما كان يدخن السيجارة حتى دق الجرس ثانيةً.

- «أربعة أسابيع حبس على ذمة التحقيق، ثم حبس بغرض الإبعاد ثم الإبعاد.»

بذل القاضي قصارَى جهده؛ كي يقرأ الحكم دون تحيُّز. دبت الحياة في الشرطي، واقتاد السجين خارج القاعة.

- «فقط لأنه أجنبي تقضون عليه. هكذا يتحوَّل الإنسان إلى مجرم. كل شخص يحق له أن يفعل بجسده ما يريد.»هكذا تحدث المحامي بانفعال، حيث بدا كما لو أن أحدهم أعطاه صفعة، وهبطت موجات شعره لتغطي أذنيه.

ردَّ القاضي بتأنيب ضمير:

- «لم يكن بإمكاني إطلاق سراحه. فهو يحتاج إلى الهيروين، وسُرعان ما سيأتي ثانية؛ ليجلس على دكة المتهم.»

لم يعُد اسمي مِلكًا لي. فالناس كانت تتلعثم عند نطقه، فيأتي وقعه خاطئًا وثقيلًا. ذريعة دائمة لشعوري بأنني غير مناسبة. كما أن نطقي للغة الجديدة كان متصدعًا بشكل مثير للريبة. إن

حدوث خطأ يتسبب في حدوث ثقب على الفور. يحب أهل البلد العلاقات الممهدة، والثقوب المسدودة.

حاول المعلم تسهيل الأمر بالكلمات التالية:

- «حاولي التكيف، تخيلي أنكِ تسيرين في الشارع، والجميع يظن أنكِ من هذا البلد.»

ولكنني كنتُ أعرف: وجهي المستدير المفلطح سوف يفضح أمري. وإذا حدث ذلك. أنا لا أريد إطالته وسحقه؛ كي أزرع لنفسي جذورًا بوصفي حبة قمح.

تقطعت أوصال المراعي بسبب السياج المُحمَّل بالتيار الكهربائي، والأبقار ترعَى وراء لافتات - خاص. كان لدينا حقول تمتد حتى شريط الموت. لا نملك البرك الكائنة هنا، حتى الأسماك كانت ملكية خاصة. أين علَّني أستطيع الركض حتى الشمس، أو أصرخ دون خصوصية حتى أسقط من فرط الإنهاك؟ كانت المشاعر التي تتجاوز الحدود محل شك واتهام، بأنها ربما ترغب في انتزاع الملكية الخاصة. إن أسطورة وعاء الطهي العجيب الذي يحوي عصيدة فارت من شدة الغليان، وانتشرت على أرضية المطبخ، وخرجت من البيت؛ لتجتاح البلد بأكملها، تلك الأسطورة لا يعرفها أحد هنا. والسكان هنا يحبون قصص الرعب القادمة من بلادنا ذات الأنظمة الظالمة، وينذهلون بها. حتى إنهم يكادون يضمونني بين أذرعتهم، ولكنهم لا يسمحون لأنفسهم بذلك. فالجسد ملكية خاصة تقبع وراء ستار حديدي غير مرئي.

قالت مارا:

- «يجب أن يطلبوا أولًا الحصول على تصريح؛ ليُسمح لهم أن يربتوا بأيديهم على وجنة.»

كنتُ أرغب في تخليصهم من لعنتهم؛ لذا كنتُ أتوجه إلى الناس، إلا أنهم كانوا يجفلون مني.

«يا لها من حياة مرعبة تلك التي عِشتيها أيتها المسكينة، ولكنكِ بخير عندنا.» وكانوا وهم يودعونني يمدون أيديهم لمصافحتي.

لم تغسل أي غسالة ملابس الأنا القديمة بداخلي تمامًا، حتى أتمكن من بدء حياة نقية بلا بقع. توجَّب عليَّ الشعور بالامتنان لِمَنْ سمح لي بالحياة هنا. وأن أكون في هذا منضبطة المواعيد دائمًا. لِمَنْ ولماذا يجب أن أكون ممتنة في الموعد المحدد؛ لأنني لستُ على ما يرام في العالم الأفضل؟ الوطن هو المكان الذي يُسمح لك فيه بالتذمر، وأنا ليس لي وطن.

في الصباح الباكر قبل المدرسة كنتُ أوزع الجرائد، ألقيها أمام أبواب الفيلات، وأنا أُهَمْهِم مع قعقعة عجلات العربة الصغيرة، على إيقاع عملي الأول. كان يتعيَّن عليَّ الانحناء؛ لأضع الجرائد بحرص على عتبات الأبواب، وأنا ألتزم بالهدوء، ولا أرتدي ملابس ملفتة، فأنا في النهاية أقف عند أسفل درجات السلم الاجتماعي، ولا يجب أن تتداخل الأدوار التي تنامت هنا على مدار القرون وترسخت، هكذا حذرني رئيسي في العمل. كان هو نفسه يضحك على كلماته

التي تخلو من الثورية، ويأسف لأن الحياة تسير هكذا. واصلتُ الخروج وقت الفجر؛ لأسير وراء العربة الصغيرة، وأترك شعري مُنحلًّا دون أن أربطه، بينما تكدَّست شكاوَى سكان الفيلات لدَى رئيسي.

«إما أن تربطي شعركِ، أو سأضطر لفكِّ رباطكِ من العمل.»

بقيتُ دون رباط. فشعري ينبغي أن ينساب، ويتهدل فوق كتفي. إذ كان شعري كثيفًا ومُموجًا. وكنتُ أُسرِّحه في الصباح أمام النافذة. كم كان يجذب أنظار الإعجاب. إلا أن أحدًا جمع بقايا خصلات شعري المتساقطة من الفناء، ولفَّها داخل ورق تواليت، ثم دسَّ هذه الرسالة في صندوق البريد. لم تكن خصلات الشعر تلك ملكية، بل مجرد قاذورات تبتلعها مياه شطف المرحاض. كانت حزمة الشعر الخفيفة لغة في حد ذاتها، ووزنها ثقيل. كان الهدوء الخانق يلف المكان حولي؛ حيث يلتمع سواد أكياس القمامة المربوطة بعناية. وسُرعان ما رأيتُ نفسي من ضمن النُّفايات التي بداخلها. حتى ورق الشجر الغض يُعتبر قاذورات. أخذت المكانس الكهربائية الفضولية، والتي تصدر ضجيجًا تلف في منحيات؛ لتبتلع الأُلفة التي تصدر خشخشة.

في حالة الدوام الهشة كان البكاء في أول الصف ينزلق خارجًا مني مع كل عثرة. فكانت فعلة إنسان واحد من شأنها أن تدفعني خارج الكون. لم أكن أرغب سوَى في الفرار من الخواء المكنوس؛ حيث تعرضت للتوبيخ، كنتُ أَرغب في العودة إلى أرصفة مدينتي

المكدَّسة فوقها القمامة. كان الوطن هو حيث توجد آثار حياة معروفة. ورائحتها العفنة أصبحت في الغربة عطرًا للوطن والحرية.

أيقنتُ أن هذه المرأة الشابة تقبع في السجن منذ أسابيع من الشحوب البادي عليها، وتشكيلات جسدها غير البارزة. تسارعت الفِكَر داخل الجسد الساكن. كانت ترتجف في طفرات، وعيناها الزرقاوان تلمعان مثل بِركة في هوة فتحة بئر، وقد تورمتا من فرط البكاء. إنها لا تدرك الذنب الذي ارتكبته؛ حيث تصطدم فِكَرها بحدود معينة. قالت إنها كانت تخدم من الصباح حتى المساء في بيوت مختلفة، وتؤدي بها أعمال النظافة، ولطالما كانت تتسم بالاجتهاد والطاعة. وعندما طلب منها حبيبها نقل لفافة صغيرة إلى بلد آخر، نفَّذت ما طلبه بطيبة وحسن نية خالصة. انحنت للأمام، وأخذت تلف يديها في حركات دائرية، كما لو كانت تريد أن تُفرِّغ ما في صدرها. أضافت أنها لم تحصل على أي مقابل مادي نظير خدماتها، فهي دائمًا خدومة، ولا تستطيع أن ترد طلبًا لأحد، فما بالك به، هو الرجل الذي يعاملها جيدًا.

لقد عرفت العوز والفاقة في طفولتها حتى ساعدها ذلك الرجل؛ كي تغادر البلاد، كما اشترَى لها البنطال الجينز الذي كانت ترغب فيه دون حتى أن ينظر إلى سعره. فهي لم يسبق لها وأن التقت بشخص مثله، رجل مثقف، لكنه غامض. إذ لم تتمكن من معرفة أي شيء عنه أو منه. وعندما اقتحم خمسة عشر شرطيًّا الشقة قبل ثلاثة أشهر، أدركت أنها كانت عروس أحد بارونات المخدرات. كانوا يوجِّهون أسلحتهم المُجهَّزة لإطلاق النار نحوها، بينما شقَّ

هو طريقه هاربًا بين الجبال. كانت تجلس على كرسي الاتهام، تحك يديها المتعرقتين.

«أرغب في مساعدتكِ بشدة. قولي لي ما تحتاجين إليه.»

ها هي تُعرَض الآن على قاضي الحجز الذي لا يريد منها شيئًا، فيعطي قراره باستمرار حبسها على ذمة التحقيق ثمانية أسابيع أخرَى.

تضع الشرطية الأصفاد حول معصميها بينما تسألها المحامية:

- «كيف الأحوال في السجن؟»

اعتلت وجه السجينة تعابير وجه ساخرة.

- «لا أريد أن يكون لي علاقة بالقاتلة. وما الذي يمكنني أن أفعله: مشاهدة التلفاز، مشاهدة التلفاز.»

- «ألا زلتِ تحبين صديقكِ؟»

- «لوَّحت السجينة بيدها رافضة، بسرعة شديدة.»

- «بسببه فقدت كل شيء، الشقة وعملي بالتنظيف حتى وإن كان بشكل غير شرعي وعائده سيء. فضلًا عن أنني يجب أن أحسب حساب انتقامه الآن.»

حتى أنها تكوَّرت داخل نفسها بغرض الحماية.

قالت المحامية بعد ترو:

- «لم أُمثِّل أبدًا أي سيدة تصرفت باستقلالية. إذ يقف وراء كل جريمة ارتكبتها سيدة رجل ما يُحرك الخيوط.»

قلتُ ردًّا عليها:

- «الضعف في حد ذاته جريمة، عدم الاعتراض أو التمرُّد، عدم استجماع القوة لرد الضربة في الاتجاه الآخر، عدم الرغبة في المعرفة، والاستمرار في الطاعة بدافع الاستسهال أو الخوف، فضلًا عن اختيار الأشخاص الخطأ الذين نعتمد عليهم.»

كان الرجل قد نشأ في منطقة أعرفها جيدًا. حيث تبادلنا الحديث عن بعض أسماء لأماكن وعائلات، كما لو كُنَّا في لقاء عائلي. وإذا بتيار الألفة يجرفني معه. فأخذت تصدر عني إشارات يد جامحة، ولم أعد أراعي أن لغة اليدين غير مناسبة في هذا البلد، وتنمُّ عن فقدان السيطرة على الذات. حاول المحامي أن يشدني خارج هذه الدوامة معه إلى طوفه - تسمَّر جسده، وأخذ يتحدث بجمل مقتضبة، ويذكر مصطلحات قانونية وراء بعضها، كما لو كانت حبات عِقد مثبتة بمسامير.

كلما زادت أمامي الأسوار والقواعد، زادت رغبتي في الحرية. ما السجن إلا دير متسخ تتجمع فيه الأماني المجنونة. والطريق الذي لطالما سلكه المذنبون حتى الآن مفتوح. تُرَى هل هناك عودة؟ هل ينبغي أن يغمر الضوء هذه الساعة التي نقضيها هنا بسبب

جريمته، وهذه الغرفة التي لا يتخللها ضوء النهار. هذا هو سبب وجودي هنا. وما الترجمة إلا ذريعة.

قال المحامي بذلك الأسلوب السائد هنا، والذي يتسمُّ بالتهوين:

- «لكَ عندي خبر ليس بالسيء. سوف يخلون سبيلكَ اليوم.»

بدأ السجين يستفيق تدريجيًّا، ويشد جسده بعد طول انحناء، ويحرك أصابعه المتكوِّرة في قبضة يده؛ ليدسَّ بطاقة تعارف المحامي في أحد جواربه حين دخل حارسان إلى الغرفة. أظهرت مرونته في الحركة أن السجن مكان مألوف بالنسبة له، فقد راح يمتدح طعام السجن، وقال إنهم يقدمون شرائح اللحم يوم الأحد والحلو آيس كريم. كما قال إنهم يعاملونه باحترام، ولم يكن ينقصه أي شيء، رغم ذلك فهو يريد الدفاع عن نفسه، ولكن مِن ماذا؟ في مكان الإيداع هذا يبدو كل شيء كما لو كان من القطن، حيث يُحرَّم عليه اتخاذ أي قرار. عندما حان وقت الوداع، انتصب واقفًا، ونظر إلينا بتأثر، ثم وضع يده على قلبه كما لو كان يفارق أباه وأمه.

سألتُ المحامي:

- «هل الرجل بريء؟»

- «هناك عشرات الجرائم عبر القارة يمكن إلصاقها به، ولكن لا يمكن لأحد إثبات أي منها عليه.»

جاء حارس يرتدي زي رسمي لونه أزرق فاتح، وهو يسير

بخطوات واسعة عبر الدهليز الطويل؛ ليقودني والمحامي إلى موظفة الاستقبال بالسجن، التي تمنت لنا يومًا سعيدًا، كما لو كانت تُودِّع بعض النزلاء بعد رحلة بالقارب يوم الأحد، وتُقلِّهم إلى الأرض اليابسة.

اعتاد السكان المحليون على الجدل، كما لو أنهم مهوسون باستقصاء المعلومات:

- «متى أتيتِ، أين تقطنين، متى ستسافرين وإلى أين؟»

بعضهم كان يحفظ مواعيد القطارات والحافلات عن ظهر قلب. وسُرعان ما اعتبروني غير أهل للثقة، وغير قادرة على حفظ مواعيد عمل شرطة الأجانب. مَنْ ذا الذي كان ليعرف عندنا متى أتينا، وإلى أين سنذهب؟. كنا نستهلك الوقت في حَكْي الأمثال والأقوال. وعندما كنتُ أحاول تقمُّص دور المخادع الوسيم، كان الناس يرفعون حاجبيهم من فرط الدهشة والاستنكار. فالمهم ألا أجعل من نفسي خرقاء، أو أبدو غير جدية. وقد شرح لنا المُعلم أسلوب الحديث الأمثل قائلًا:

- «فلتُعلنوا عما ترغبون في قوله، ولا تنسوا أثناء ذلك المدة المتاحة، والهدف الرئيس للدردشة. هكذا سيشعر مَنْ يشارككم الحديث بأنه أكثر ثقة.»

إلا أن الأكيد في الأمر هو الشعور بالملل الذي تملَّك مني. وقد بيَّن لنا المعلم ذلك، كما شرح باستفاضة ما يرغب في تناوله في الحصة، وحقق كل نقطة مما انتواه. كنتُ أتحرَّق شوقًا للمفاجآت، كم كنتُ أحب هذه الكلمة للغاية؛ كي يحدث شيء بشكل مفاجئ، ويُعكِّر صفو الحصة، ويقاطعها.

إلا أن المدرس استبعد هذا الأمر وقال:

- «ليس هذا ضمن الخطة الموضوعة.»

كان حديثي بلا أبواب، أو زوايا، أو بالأحري غير مرتب، بينما كان نظري مُوجَّه إلى نقطة بعيدة، وكنتُ أغفل التفاصيل القريبة. قاطعني المعلم؛ ليرتب تدفق نهر الكلمات في مجارٍ ومساراتٍ قائلًا:

- «لحظة.. كل شيء في دوره.» وبعدها قال وهو راضٍ: «أنه أصبح يفهمني هكذا أفضل.»

كنتُ أسارع لحضور الاحتفالات والأعياد؛ كي أتمكن من تناول الطعام وسط الصحبة حتى أشبع. إلا أن الاحتفال لم يكن سِوَى استكمال للعمل دون انقطاع. حيث يُخطَر المدعوون كتابةً بالبداية، وكذلك بالنهاية المتوقعة. كما كانت الأحاديث تدور حول تصاريح البناء، الانتخاب الجديد لرئيس المحكمة المدنية، والزيادة المطردة لأقساط التأمين الصحي، بينما يظل كارل الصغير، وفيرني الصغيرة، وليزا الصغيرة صامتين كما لو كانوا مظلات مطر منسية ومُهملة - وبحكم العادة كانت النساء أكثر موضوعية من ناحية القواعد اللغوية. أما أنا فلم آتِ إلى هنا كي أصمت. فقد أتاحوا لي بكل سخاء حرية الحديث لفترة وجيزة، ولكن بدلًا من أن يندهشوا من حكاياتي أخذوا يمزقونها بحلول عملية. إذ كانوا يرغبون في حل العالم، بينما لم أكن أنا أرغب سِوَى في أن أحكي.

تطفُّل؛ هذا التعبير الذي كانوا يطلقونه، إذا حدث وأتَى ضيف

دون دعوة. إذ من الأفضل الإعلان عن مثل هذه الخطط الحربية كالتالي: أخطط للتطفُّل عليكم خلال ثلاثة أسابيع، هكذا يتم التهديد بالزيارة المرتقبة. هناك طلعات هجومية، أو بالأحرى تطفُّل غير معلن. يتعهد المضيفون بتحقيق المتطلبات والمزايا مع مزيد من التشويق والإثارة. حتى احتفالات الأطفال كان لها إبداعات تخضع للنقاش مسبقًا؛ حيث يتم ممارسة ما توقعه الضيوف الصغار بصبر متناهٍ. حتى تنفيذ حفل سيء التخطيط، أمر يتطلب بعض الجهد من كافة المشاركين فيه. كما أن انصراف المدعوين لم يكن ليعني النهاية. فهنا يأتي أوج الاحتفال: لاسيما من مسافة بعد آمنة، ومختفيًا داخل مظروف، حيث يرسل الضيوف بطاقات شكر مطبوعة مسبقًا مذيَّلة بعلامات تعجب.

بعيدًا عن أي خيال عن ما يمكن أن يجلبه الغد، لم يكن باستطاعتي المشاركة في أي من ألعاب التخمين والفوازير الشعبية: كم تبلغ درجة الحرارة فوق الجبل، وكم تبلغ أسفل موقد المصنع في الشمال الغربي؟ هل ستصدق تنبوءات الأحوال الجوية؟ ها هي أغراض الحماية من المطر جاهزة عند الباب. كنتُ أتحدث عن ذلك الطقس الذي كان قد بلَّل البشرة بالفعل، أو غمرها بالدفء، بطريقة جسدية حميمة. لم تكن المعجزات لتحدث هنا، فالشمس كانت تسلك مسارها الثابت، مثلما يفعل كل خبير ضرائب. ومثلما كانت الأمطار المُعلن عنها تسقط في موعدها، كانت الخطابات أيضًا تصل في موعدها، فكان ساعي البريد أشبه بضفدع الطقس. إذ كانت الرسائل الجيدة والسيئة تتنقل بين يديه، ولم يقع هذا البطل

الشعبي فريسة الغواية بأن يفتح أي من الخطابات السميكة مثل مَنْ يفض إحدى سحب الطقس في الخواء. لم تحترق الفواتير على جانب الطريق، كما لم يحرق أحد المدفوعات النقدية. كان التنظيم محسوسًا بشكل يبعث على الراحة، ذلك التنظيم الذي ضحَّت البلاد لأجله طوال قرون. المؤسف فقط أن كل من ساعي البريد، ومفتش التذاكر (الكمساري) لم يتدربا على تبادل بعض الكلمات بشكل عابر.

لكن الحكي لم يكن من نقاط قوة هذا البلد بأي حال. فالرواة الموهوبون لا يأخذون الحقائق بدقة. ولكن أي مآسٍ تلك التي يجب أن نُحييها ونتذكرها؟ في عام الثورة جلس بعض الناس على قضبان القطار، دون مراعاة للعاملين باليومية الذين تعين عليهم الإسراع إلى مكاتبهم سيرًا على الأقدام. حين حكوا بفخر عن تعطيل المواصلات العامة، فهل أخذوا يهذون بشأن الجرحى والموتى، لا، فهم لم يبالغوا ولم يحيدوا عن الحقيقة قيد أنملة. كان يمكن الاعتماد عليهم في ذلك. ومتى لم يكن بالإمكان الاعتماد عليهم؟ إنهم لم ينحنوا. حتى في حالة الحب. هذا هو المكتوب في القطارات بأربع لغات. إذ لم تُفضل اللغة الدارجة راديكالية جملة: «أنا أحبك» بالألمانية الفصحَى. واستبدلوها بجملة بالعامية تُعبِّر عن أقصَى المشاعر لديهم: «أنا معجب بك»، يقولونها حتى لحبوب الشوفان.

«إنها راقصة.» قالتها الممرضة بسخرية.

«هل تنتظرينها؟»

أعرفها من مشيتها، فهي تتعثر بكعبها العالي، وتضم أثناء ذلك فخذيها. تحكي لي قصتها بصراحة. يصدر عن هذا الفم العبوس صوت دافئ. حكت أنها ليلة وراء الأخرَى، وحتى الرابعة صباحًا الحبيبة، فهي تعبث مع الرجال الباحثين عن امرأة ساذجة في الحانة.

- «هل يتعين عليكِ مضاجعتهم؟»

- «لا، لا. نحن نرقص، ونحن نتعرَى من ملابسنا. وفي أوقات الاستراحة نحفز الرجال كي يحتسون الخمر. وبين الحين والآخر أسكب كأسًا في القمامة. فأنا لا أتحمل الإكثار من المشروبات الكحولية.»

- «ألا يمكنكِ الامتناع عن ذلك؟»

- «سأفقد العمل حينها.»

ارتجفت. الأمر الذي يحد بالنسبة للفتاة ذات الخمسة وعشرين عامًا بمثابة الأعراض المصاحبة، وغير المبشِّرة بالخير لحدث جلل أصابها. فهي تُفضِّل التعري في بلد ينعم بالرخاء، عن أن تبقَى في وطنها؛ لتعمل موظفة خزينة بأجر لا يغني من جوع، حيث

يتحرش بها المدير، ليتقدم بها العمر مبكرًا. أخرجت صك الحظ من جعبتها العَقد القديم، ومكتوب فيه «راقصة منوعات». نظرت إليَّ في انتظار التشجيع والمواساة مني. وسُرعان ما بدأت تسوق الحجج. فقالت إن أباها مات، وأمها فُصلت من العمل في مصنع الأسلحة. ثم حدَّقت بعينيها وقالت:

- «هل سمعتيني؟ إنها أزمة حقيقية. لدي ابنة عمرها أربع سنوات.»

- «هل تعرف أمكِ ما تفعلينه هنا؟»

- «تعرف أمي أنني أرقص.»

تنطق كلمة «رقص» كثيرًا، وتؤكد نبرتها، أي أنها تمارس هويتها الجديدة. الرقص فن، مهنة معترف بها، وعليها أن تضحي بشيء لأجله.

«ليس مسموحًا أن يزيد وزني كيلو جرامًا واحدًا.»

ما هي إلا جسد، وليست كائنًا موهوبًا لغويًّا. فما الحاجة للغة في الحانة مع السكارَى؟ تقتصر ثروتها اللغوية على التحية بكلمة "تشاو" التي تقولها حتى للطبيبة. فهي ترفع التكليف المرتبط بالوظيفة، ولا تفرق بين الخاص والعام. وهي لم تصل إلى نهاية قصتها بعد. ها هي النهاية السعيدة ستأتي:

- «لقد تعرفتُ على رجل من هنا. هو يريد أن يتزوجني.»

تقولها في شعور بالنشوة، كما لو كانت مُنقِّبة عن الذهب، عثرت على عرق ذهب. تستجمع نفسها، وتنفخ:

- «لم أحسم أمري بعد. هل أترك كل شيء ورائي؟»

إنها تتوقع من واحدة أدارت ظهرها للوطن بدورها أيضًا أن تزيل هذا الشك البلاغي. آه ماذا، لا شيء مثل الرحيل. صمت.

قلَّبت طبيبة أمراض النساء والتوليد في بطاقة المريضة بوجه متجهم، وقالت:

- «يتعين عليكِ استخدام الواقي الذكري بسبب تناوب العلاقات الجنسية. جاءت نتائج تحليل الإيدز، وتحليل فيروس الكبد الوبائي سلبية، كما لم يتأكد أي شك بالإصابة بأمراض تناسلية. لم نلحظ سِوَى تغير في خلايا الرحم.»

لقد تبدل شيء في مركزها النسوي.

- «بطني منتفخة وتصدر أصواتًا. هل أنا حُبلَى مرة أخرَى؟»

جاء اختبار الحمل أيضًا سلبيًا، ما تسبب في فرحة المريضة. إلا أن وجه الطبيبة تحوَّل من الاشمئزاز إلى الحزن. منذ فترة وجيزة تعرَّضت المريضة للإجهاض على متن الطائرة، عندما كانت في إجازة خاطفة ببلدها. كان ذلك بمثابة الحادث السعيد؛ لأنها لم تكن ترغب في إجراء عملية إجهاض. إذ أنها تتمتع بأخلاقيات. أصبح الحديث عن القضيب الذكري المُغلف، وكريم المهبل القاتل للحيوانات المنوية أصبح بلا هدف، مما جعلني أُترجم بلا رغبة.

قررت السيدة الشابة تركيب لولب لمنع الحمل، وتريد أن تطلب من متعهد الحفلات سداد التكاليف.

جعلت من «متعهد الحفلات» «قاطع وعد» في الترجمة.

كنتُ صغيرة للغاية على هذا البلد الناضج المتعقل. محاولاتي كي أتحداها في نِزال حب متوحش باءت بالفشل. ومثل أم شابة تُحجم عن زوجها العجوز، وتوجِّه حبها وشغفها بأكمله لابنها، ركزتُ أمالي على رائحة الأطفال النضرة التي تتجاوز الشعوب. كم كنتُ أرغب في امتصاص هذه الرائحة، والالتصاق بهذه الأجساد الناعمة، والانصهار في الإنسانية. فالأطفال ينتمون إلى البرِّية بعد، وربما يمكنني أن أكون معهم عارية، ومرحة، وعلى طبيعتي دون أن أضطر لوضع مشد الثقافة القاسي. إلا أن الأطفال الرُّضَع كانوا جزءًا من ممتلكات العائلة، ولا يتركهم أحد في أيدي الغرباء. كانوا يمنحونهم أسماءً طويلة، كما لو كانوا من الوجهاء الذين ينبغي مخاطبتهم بصيغة الاحترام. كان الآباء يحدثونهم بكل أدب، ويحافظون على الشكليات، بل ويقبلونهم بشكل رسمي قبل أن يذهبوا للنوم. إذا كانوا يعاملون أطفالهم الذين هم من صلبهم معاملة الدبلوماسيين، فكيف إذًا سيكون الأمر معي؟ إنهم لا يمازحون المخلوقات الصغيرة، ويعتبرون هذا مغالاة تفوق طاقتهم. إذ كانوا يرددون المحظورات بجدية وبطء:

«لقد قلتُ لكَ، أنه ليس مسموحًا لكَ بذلك.»

كنتُ أنتظر أن يرفع الوالدان هذا الحظر على الفور، ويعتبراه كأنه لم يكن، ثم ينفجرا ضاحكَين. «بلى، بلى، بالطبع مسموح لك، هيا خذ»، ثم يعانقا قطعة البهجة تلك ويهدهداها؛ لتتعاظم

البهجة وتنمو وتجتذبني معها. إلا أنهما حافظا على كلمتهما، ولم يرفعا المحظور مطلقًا. كانا يناشدان العقل بكل ثقل، ويُجهزان النشء للعالم الظاهري الذي يعرفانه عن ظهر قلب. إلا أنهما كتما عن الطفل أن وراء هذا العالم تختفي آلاف العوالِم، وأسفله آلاف الطبقات من الأرض، والآلاف من البهجة والسعادة. وهذا يُعدُّ من قبيل الخديعة، وهذا ما استندتُ إليه في مواجهة هذا الأمر. إذا خالفتُ قواعدهم ظنوا أنني لا أتحلَى بالمنطق. كانا يمارسان التنوير، بينما كنتُ أنا أقاطعهما.

«أعرف.»

هم يمنحونني ملجأ وملاذًا في أفضل العوالِم على الإطلاق، وها أنا الغريبة الجاحدة أسخر من رؤيتهم للحياة.

كانوا يُحذِّرون البراعم الصغيرة في حوض الرمل أثناء اللعب قائلين:

- «ليس هذا الدلو خاصتك، فلتعيده للطفل الآخر. العب بدلوك فقد اشتريته لك.»

وإذا جذب أحد الأطفال دلوه وضمه إليه كانوا يقولون بفخر:

- «لقد تعلم الطفل التمييز بين أغراضه وأغراض الآخرين، إنه ينمو بشكل رائع.»

كنتُ قد تعلمتُ ألا أمنح الأنانية أي فرصة، وأن أتشارك مع الآخرين، وأن أقف مع الآخرين دائمًا، وأزيل عنهم همومهم، وأعتبر

مآسي الغرباء بمثابة مآسٍ تخصني. أما هنا فإذا تدخلتُ في أمور الآخرين لا أتلقَى المديح على ذلك، بل أجابَه بالصد:

- «هذا الأمر لا يعنيكِ.»

- «كل ما يحدث يخصني بشكل ما.»

حينئذٍ كانت ترِد الإجابة الغريبة:

- «فلتستمتعي بحياتكِ الخاصة.»

كم كان وقع هذا الكلام مريبًا! لم يكن هناك متعة يمكن أن تكون أهم من الكفاح البطولي لأجل صالح الإنسانية. وكم هو تافه ذلك الشعور بأن أُكرس نفسي؛ لأجل تجميل حياتي الخاصة. لم أكن أريد التقلص والانكماش، بل كنتُ أنوي أشياء كبرى. هكذا تحوَّل ما كان يعتبره نظامنا الديكتاتوري بمثابة السُّبَّة والفعلة التي تستحق المقاطعة والعقوبات، تحوَّل إلى إنجاز ديمقراطي.

«أنا متفرِّد، ولستُ مثل الآخرين.» جملة قالتها البلد بأكملها، كما لو كانت صادرة من فم واحد.

أما أنا فلم أكن مختلفة عن نوعهم، بل كنتُ ضيفًا قادمًا من القمر. كان كل شيء لدينا مباحًا، إذ لم تكن أبواب المراحيض العامة تُغلق، فنحن كنا أشبه بالجسد الواحد الذي لا ينقسم. وقد تمَّ بتري من هذا الجسد. إصبع صغير ظل عالقًا في الفضاء. وإذا حدث وعبَّرت عن حزني، كانوا يُفهمونني بصراحة أن الذنب ذنبي؛ لأنني لم أتمكن من التعايش. فأنا الذي أبقيتُ على عنادي، وأحجمتُ عن

الشعور بالسعادة في ظل هذا الزواج القهري مع البلد المضيف. إلا أنني لم أعرف حظًا آخر سِوَى هذا الحظ المنصهر والمُجتزَأ ، كما لم أرغب في غيره.

كانت لي زميلة في المدرسة تجني مصروف يدها من العمل في سوبر ماركت.

- «ولكن والديكِ أغنياء.»

اندهشت من خلطي للأمور بشكل غير معهود وقالت:

- «هما أغنياء، أما أنا لا. ويجب أن أتعلم كيف أكسب المال بنفسي.»

إنها لم تفتقد العطاء غير التربوي والاستهلاكي. وبينما ظننتُ أنها فتاة مسكينة مع هذين الأبوين، كانت هي فخورة باستقلاليتها.

تدثرت الأسرة بسترات منتفخة؛ لصدِّ الريح باللون البيج، من المفترض أن تحميهم من البرودة، وتصدُّ عنهم الصدمات. وإذا حدث وأن وخز أحد هذا الواقي المنتفخ، لما تبقَّى منه سِوَى قشرة بلاستيكية مُجعَّدة. إلا أن البرودة والتصادم لا يُهددون من الخارج. غار شحوب الأب في هالات عينيه العميقتين. إلا أن وجه الأم في المقابل كان مستويًا، ولا يحمل أي تعابير تُعكِّر صفو هذه الأرض القاحلة. يتدلَى شعرها الأشعث مثل العشب الجاف العالق في شق حجر. ليس هناك أي نتوءات في قوامها، كما أنها مسطحة حتى نفسيًّا. جسد بارد ومنحوت. صبي وفتاة لفا نفسيهما بحبل، وهما يلعبان، وأخذا يتدحرجان على الأرض، وفجأة راحا يركضان، وهما يصرخان عبر مكاتب معالجي الأسر. يتوهمان أنهما وحدهما في خواء ما، أيًّا كان المكان الذي يحلان به. إنها أسرة تتكون من أربعة أفراد، أشبه بفريق شدِّ حبل شاحب، وهزيل، ونحيل، وكلهم لديهم نفس الشعر الأشقر متوسط الطول. لا أحد يقود الفريق هنا. الحركة الوحيدة التي تتبع هدفًا، كانت تتمثل في الوصول إلى بلد جديد.

توتر جسدي بأكمله كما لو كان يريد تمزيق حبال غير مرئية التفَّت حولي. انتقل إلي مزاج هذه الأسرة. كما اتخذ المعالج النفسي الأُسري بدوره موقفًا جامدًا تجاههم، وقال بصوت درامي إن موظفة دار الحضانة تعيَّن عليها إبلاغ الدولة. هل السبب عنف

تجاه الأطفال أو زنا محارم؟ لا. فقد لاحظت المربية عدم انضباط الأطفال، وتأخرهم عن الحضور في الموعد، وأرسلت خطابات إنذار، واستدعت الوالدين لكنهما لم يحضرا. نحن نجلس على مائدة في بلد يُدين الإنسان بسبب مدَى الاعتمادية عليه في الالتزام بالمواعيد. إلا أن البلد الذي جاءت منه هذه الأسرة يغمر فيه فيض كل الأمور الأخرَى الوقت. فتتغير العقود ما بين البشر، وتنزلق في فوضَى الارتجال كما تزحف مناحي غامضة بشأن خطط المستقبل؛ لتصبح عصيدة غير محددة المعالم.

حتى في الشقة التي يسكنون بها، يركض الأطفال في كل مكان، ويلتقطون أحد المكعبات من الأرض، عجلة أو سير، ثم يعاودون إلقاء كل شيء. وهي قطع من لعبة ينبغي تركيبها وتجميعها؛ لينشأ هيكل معين إلا أن الإرشادات ليست موجودة. فقد خُلعت عن اللُّعبة هكذا المتعة وإثارة الفضول، وخلَّفا وراءهما خُردة لا قيمة لها. بينما الأم لا تهتم سِوَى بقلقها على توفير المال اللازم.

- «حضور دورة لتعلم اللغة.»

- «هذا مُكلِّف للغاية.»

- «وُضِع الأطفال في دار حضانة للاستضافة طوال اليوم؟»

- «مَنْ الذي سيتحمل تكلفة ذلك؟»

تقول المُعالِجة النفسية إن الإحباط يعمل مع الوهم، ويضفي على المخاوف جديَّة. ليس هذا سِوَى خدعة. أخذت السيدة تهمهم،

فهي تخشَى أن يفقد زوجها عمله. وكانت قد خسرته بالفعل كزوج ، حيث نقل مرتبته إلى غرفة الأطفال لينام بها، وها هي مكعبات لُعبة الليجو تحتل مكانها فوقها. بينما تستلقي هي وحدها في غرفة النوم، وقد أسدلت الستائر، ولا يتجرأ الأطفال على دخول الغرفة. عندما أخذت الزوجة تتجوَّل شبه مُغيبة في الشقة، رأينا ما فعله بهم الخوف. هذا الجسد النحيل لا بُدَّ وأنه تقوَّس بسبب الحمل مرتين قبل عدة أعوام، وانساب حليب الرضاعة منه. نستسلم لروح البيت، حيث لا ابتسامة ولا تهور. لم نحظَ باستضافة حقيقية، إذ لم يُقدِّم لنا أحد كوب ماء، الخوف ليس مضيافًا. تريد سيدة البيت هذه شيئًا، إنها تبحث عن فريسة. ما أنا هنا سِوَى ماكينة الترجمة، والمُعالِجة النفسية وسيلة لفك لغز الحياة.

لا ينظر الأطفال إلى الضيوف، بل يكررون دوراتهم المجنونة والمزعجة. ما يبدو بمثابة قوة جامحة، هو فعل يائس لا هدف له. كانت هناك آثار خنق على عنق الفتاة. مَنْ فعل ذلك؟ الإهمال. كان الأطفال يمارسون لعبة الكلب وصاحبه، واستخدموا الحبل المُخصَّص لتسلق الجبال؛ ليكون بمثابة طوق وسير، بينما كانت الأم تقبع في غرفتها. يمكن أيضًا أن تستلقي الأم بين مكعبات الليجو، وما على الأطفال سِوَى حمل جسد الأم الذي بلا حياة ومعاودة إلقائه.

التأخر في الحضور إلى دار الحضانة مؤشر. فالأم لا تستيقظ من النوم صباحًا، ولا تُخرج الأطفال إلى العالم في الوقت المناسب.

المرأة المريضة عالقة بالحب، وتعوق المجموعة عن الصعود. والآن يتحدث الزوج، ويقول أنه يعمل مبرمج كمبيوتر في مدينة أخرَى، ويضطر للسفر ذهابًا وعودة كل يوم، وأنا أترجم.

يصحح لي قائلًا:

- «أسافر متنقلًا. فأنا مسافر متنقل.»

إذًا هو يعرف الكلمة. وعندما قالها اعتدل في جلسته. هذه هي هويته، مسافر متنقل بين العوالِم، يتنقل بين نفسه وذاته في القطار بين مدينتين، في قطار المتنقلين يجد صحبته الرخوة. هنا نضج القرار. يلتمع شيء ما داخل أعماق هالات العينين.

- «لقد استقَلْتُ من عملي.»

تجاوز نفسه، وتجاوز كذلك قلقه على الأسرة.

- «قلتُ لمديري إنني تعيس.»

حدَّقت به زوجته كما لو أصابها خطر يهدد حياتها. ثم ضحك الزوج بعصبية، كأنه يُبين أسنانه الحادة لمخاوفها.

توقف الأطفال فجأة وظلوا صامتين. شدوا طواقيهم؛ ليغطوا آذانهم، وأغلقوا أزرار ستراتهم المنتفخة الحامية من الرياح، وألصقوا وجوههم على زجاج باب البيت. إنهم مستعدون للرحيل.

كنتُ أهرب إلى الطبيعة في انتظار أن تستقبلني دون تحفظات. كان رفاقي يبحثون عن اللافتات الإرشادية أثناء الطريق إلى القمة؛ كي يتأكدوا مما هو محظور. إلا أنهم لم يروا أي لافتة، فأصبحوا حائرين من أمرهم. هل مسموح لهم بمغادرة طريق التجوال، والسير عبر مرج الحشائش، والاستحمام في البحيرة؟ كان التعسف يسود مثل هذه الطبيعة، فأخذوا يشقُّون طريقهم غير واثقين من وجهتهم. وبينما أظلمت عقولهم وسط الشجيرات غير المشذبة، استيقظت حواسي أنا. أخيرًا ظهرت أمامنا لافتة تحذيرية، وعد. سمقتُ مثل امرأة شابة جميلة مطوَّقة باللون الأحمر، والكتابة بالخط الأسود السميك. قرأوها علي بشيء من نشوة النصر.

عرفتُ في عهد الدكتاتورية ببلدي كيفية تحدي العبودية – لاسيما من خلال معاملة السلطة الأعلى على أنها عدو. أما هنا فإن أهل البلد الذين يرغبون بشدة في تقمُّص دور حُماة النظام، يتظاهرون أمامي بعدم سيادة دولة استبدادية، بل إنهم مواطنون أحرار.

همست مارا قائلة:

– «أتمنَى أن يحدث زلزال، ويقوِّض لوائحهم وخرائط سيرهم ويدفنها.»

ثم حذرتني قائلة:

– «حتى الزلازل هنا يمكن التنبؤ بها.»

كم كان الكثيرون منهم يتوقون لإرسال إلههم إلى الجحيم، على الأقل مرة واحدة. في الصيف يسافرون إلى بلاد موحلة، ويتحدثون بصوت عالٍ ولا يفهمون اللافتات، وينفقون المزيد من المال أكثر من المعتاد، ثم يعودون أدراجهم، وقد انخفض صوتهم؛ لتصيبهم الصدمة مما فعلوه هم أنفسهم، فيزيدون من تحذيراتهم لي. إنهم في صميم قلوبهم يبقون مديري منزل شغوفين للأشخاص صعبي المراس والتربية.

جاءت إلى الفناء الخلفي قطة نحيفة للغاية. من ذا الذي سيحجم عن إطعامها؟ في اليوم التالي جاءت إليَّ تموء مرة أخرَى. بعد بضعة أيام طلبني الجيران؛ ليعنفوني، ويلوموني، لأنني تجرأتُ، وعوَّدتُ قطة غريبة كي تتخذ من المبنَى سكنًا لها.

- «الأمر معروف. أولًا قطة صغيرة، وسُرعان ما سنرى قطيع من القطط.»

- «أين ترون هذا القطيع الكامل؟»

- «اليوم واحدة وغدًا الكثيرون. إلى أين سنصل إذا ما سمحنا لأنفسنا بقبول الاستثناءات؟ إما أن تكون القطط ملك أحدهم، أو يوضعون في ملاجئ لرعاية الحيوانات.»

إلا أنني واصلتُ جلب الطعام للقطة المشردة، حتى وإن كان الطعام لا يتناسب مع هذا الحيوان. لستُ خبيرة بالقطط، أمتلك تكليفًا حكوميًّا، وقادرة على التعامل مع الموقف على المدَى الطويل؛

كي أمنع تفشِّي وباء القطط. ففي بلدنا الدكتاتوري كان مسموحًا لنا بإطعام القطط دون تصريح حكومي. علَّق جيراني لافتة في الفناء الخلفي مكتوبًا عليها «ممنوع إطعام القطط». وعليه أخذتُ ألقي أطعمة من النافذة حتى افتضح أمري، وتعرضتُ للتحذير من مدير شؤون المنزل. جاء هذا التحذير مكتوبًا في صيغة تهديد بمقاضاتي. فأصبحتُ أحمل الطعام إليها خارج البيت ليلًا. وكنتُ أتخيل أنني سأرى فِراء القطة مكسيًا بالدماء أمام بيتي. ولكن هذه لم تكن سِوَى أوهام في رأسي؛ لأنهم ليسوا دمويين هكذا هنا.

كيف خرجتُ إلى العراء من وسط هذا العالم المحاط بالسياج! لم يعد بالإمكان إيقاف الصدامات وكبح السرعات، لم يكن هناك سِوَى التحرُّك ذاته. ظل أهل البلد متوقفين لحين، إذ ظنوا أنهم وصلوا إلى الهدف. وكانوا يقولون في أنفسهم «نحن في حال جيد»، وكانوا يخجلون قليلًا؛ لأنهم في حال جيد ويرغبون أن أقلدهم، وأحاكي طريقتهم؛ كي يكون حالي أنا بدوري جيدًا، حتى لا يتعين عليهم أن يخجلوا. كان هذا مفيدًا بالنسبة للطيور المدرَّبة بالمنزل، أما بالنسبة لأحد صغار الطيور الجارحة، فهو بمثابة القفص. تعيَّن عليَّ حزم كل خبراتي بعد تفريغها، والتخلص منها مثل النُّفايات الخطيرة؛ كي أبدأ من نقطة الصفر. نظرتُ إلى أهل البلد بشيء من الشفقة كما لو كانت افتراضاتهم مرضًا. هنا كانت الشفقة تواجه شفقة.

حلقوا شعري تمامًا، وعبأوني في علبة صغيرة. لا. لقد قابلتُ

وسواسهم القهري بهستيريا، وركضتُ وأنا أصرخ هاربة. إن التخلي عن الطبيعة المتوحشة يعني ألا أكون. كنتُ بمثابة اللحم النيء، وأضع فوقي فراءً خشنًا. أرجو ألا أصبح كما هي العادة هنا، مهترئة من فرط الطهي، ومقسمة إلى أربعة أجزاء. لم أكن أعرف شيئًا بعد عن التحولات، وأردتُ الاحتفاظ بغريزتي.

أرى أولًا بطن منتفخة، يتأرجح بجوارها ذراعان، ثم أرى بعدها عينين محدقتين، وأنف أفطسه الدهر، يتنفس من خلاله المريض بصعوبة. بينما يمثل قوام الطبيب النفسي البرنامج النقيض: جسد يتسم نصفه العلوي بالعضلات المفتولة من التمرينات الرياضية، يلتصق به قميص ضيق بلا أكمام، بينما تجمَّع الشعر الأسود الكثير كله إلى الخلف في شكل ذيل حصان. عندما يقول للمريض الذي حاول الانتحار:

- «كم أنا حزين؛ لأنك لست على ما يرام». يكون لحزنه الاحترافي أثر الشفاء.

أجاب المريض من بعيد، وبعد تردد دام دقيقة، كما لو كان يتحدث في مكالمة هاتفية عبر البحار:

- «إنني أسقط، إنني أسقط.»

كبح تعب هائل انتقال الكلمات. لقد جاء من بلده التي مزقتها الحرب، وهو الآن لم يعد يريد الاستمرار.

- «إذا قتلتُ نفسي الآن فأنت لن تلحظ ذلك، حتى وإن كنتَ تجلس إلى جواري.»

تظاهر الطبيب النفسي بأنه يشعر بالإهانة، وأطبق على ذراعه وقال:

- «لن أتركَكَ تغيب عن عيني. سأهتم بكَ.»

- «سأحزم أغراضي يوم الجمعة، ولن تروني ثانية.»

- «يحتاج الدواء المضاد للاكتئاب إلى وقت طويل ليبدأ مفعوله، ولن يظهر له أي تأثير قبل يوم الجمعة.»

- «يوم الجمعة ليس بالضرورة يوم الجمعة. يمكن أن يكون الإثنين أو الأربعاء.»

هكذا عرضتُ علمي في مجال تداخل الثقافات.

في ثقافة المرضَى يُعدُّ الزمن أمرًا قابلًا للتفاوض والمساومة. إلا أن الطبيب النفسي تفحصني بريبة. فأنا أحطم هكذا مفاهيم ثابتة: يوم الجمعة هو دائمًا يوم الجمعة، فالمريض موثوق به. استغرق الأمر وهلة، حتى وثق الطبيب من أن يوم الجمعة ليس يوم الجمعة.

اتَّصل بي يوم الإثنين، وقال:

- «لايزال المريض موجودًا، ونحن بحاجة إليكِ.»

كان المريض يجلس هناك، ويتثاءب دون أن يغطي الخواء داخل حلقه بيده، ثم يلوك لعابه.

- «ألا زالت فِكَر الانتحار تراودكَ؟»

- «ماذا؟ أسمع هذا الموضوع لأول مرة. حسنًا انتظر لنتحدث معًا.»

لقد استدعوا زوجته. بكل بساطة هكذا أراد أن يواريه الثرى؛ ليتركها هي وأطفالها.

قال الطبيب النفسي لائمًا:

- «ألم تقل لزوجتكَ؟ لقد انتابها القلق.»

أومأ المريض الراغب في الانتحار بخجل؛ لأن الانتحار أمر غير محترم.

تبرمت الزوجة قائلة:

- «إنه يثير جنوني في الفترة الأخيرة، حتى أنه يدور حول نفسه طول اليوم في الشقة. فقد سألته: هل تعاني من الصداع أو آلام بالقلب؟ فأجابني قائلًا: آلام نفسية.»

قال الطبيب موجهًا حديثه للمريض:

- «نحن قلقون عليكَ.»

إنه قلق؛ لأن القِسم الذي يعمل به يمكن أن يواجه صعوبات، إذا انتحر المريض بعد خروجه من المشفَى.

- «سنزيد من جرعة مضاد الاكتئاب؛ كي نؤثر على العمليات الكميائية داخل المخ بشكل أقوى.»

ينظر طفلان صغيران متشابهان إلى الأب بلا اكتراث وبشيء من التعجب، كما لو كان لعبة معطوبة.

حينئذ انتفض المريض، وهو يصرخ ويقول:

- «هل لديكَ أيضًا محلول ضد الحروب الاكتئابية، ضد الدكتاتورية والاستبداد في الزواج، وضد جنون الهجرة؟ فلتحقني به.»

ثم مدَّ ذراعه المتهدل إلى الطبيب، وشمَّر كُمَّ قميصه.

وقف طابور من البشر أمام خزينة محل البضائع. الجميع شديدو التركيز، متوجِّهون صوب الهدف، ولا يرغب المنتظرون في أي شيء يُشتت انتباههم. ما الذي عساهم يتجاذبون أطراف الحديث بشأنه، فندرة البضائع أمر مستبعد، وهو الأمر الذي من شأن التذمر بسببه أن يتسبب في الدفء بين البشر وبعضهم. لقد صاحبوا الأغراض الكائنة في سلة البضائع التي يحملونها. إذا حدث وألقيتُ نكتة مثل القنبلة اليدوية وسطهم، فلا ينفجرون ضاحكين بكثير من الامتنان، ولا يمدون بطونهم للأمام، ويسندون رؤوسهم إلى الوراء بلا اكتراث، أو يتركون أكتافهم تتدلَى، وعيونهم تتجوَّل؛ لتصل إلى المواطنة المازحة التي أطلقت النكتة، بل ينحنون إلى الأمام؛ ليمنحوا هذه المشاغبة معكرة الصفو شحنة من الغضب المهذب الصامت. وأنا لم أكن أبدًا لأمس توترهم المقدس هذا ثانيةً، الذي من شأنه أن يُنتج تيارًا كهربائيًا يكفي مليون أو مليوني منزل.

إنهم لا يسمحون بالمزاح معهم، وتحديدًا عندما يتعلق الأمر بالمال. وما إن ينتهي سداد الحساب، يعقبه تحية شكلية، يرن فيها الصوت بشكل أجوف، فهم يتوجهون على الفور إلى الهدف التالي. لا توجد أي فرصة لإخراجهم عن شعورهم ورباطة جأشهم. يبدون وكأنهم منغمسون كل لحظة في الكدح، والموت وحده، ذلك المتسكع المجهول، هو الذي يستطيع أن يتركهم يذهبون. تُفشي

النظرة الثاقبة الوجهة الدنيوية، فهي تضع ما هو واضح وقريب نُصب الأعين، وتكشف أصغر البقع، دائمًا في الخدمة، أشبه بالمخبر السري الأجير. تحت نظرتهم الخاطفة، مسكت بنفسي أفكر فِكَرًا هامسة، وليست بريئة. لم يهدأ البصر في السحب، إلا إذا كان تمَّ تكليفه لأسباب مهنية بتفتيش السماء بحثًا عن بقع مشبوهة. حتى في هذه الحالة لن يكون المشهد خاملًا كما هو الحال بالنسبة لمنظر السحب. ومع ذلك فقد فشلوا في كل شيء من شأنه أن يجعلهم يهزون أكتافهم بأي حال من الأحوال، بل ازدادوا عزمًا وتصميمًا على إزالة البقع باستخدام فرشاة مزدوجة، وخرق امتصاص خاصة، وكل المستلزمات المطلوبة للتعامل مع الحياة اليومية، والتي كانت قد جرتهم إلى الخزينة.

لدينا في بلادنا كنا نستهدف شيئًا عشوائيًّا، فإذا أصبناه احتفلنا، وإذا لم نصبه يكون هذا ذنب الدكتاتورين الأشرار هناك بأعلى. كانت الحياة في ظل الديمقراطية قاسية. إذا ما أتم الناس مهمة، لا يوجد احتفال، بل معالجة لاحقة للمهمة، هي كلمة غير قابلة للترجمة. كان هناك شخص مسؤول عن كل بقعة، ويتعرَّض للمحاسبة لأجلها. كانوا يعذبون أنفسهم بتأنيب الضمير، إذا فشلت مخططاتهم، ويعلنون بكل بطولة: «أنا سأتولَى المسؤولية.» كنتُ أتهجأ تلك الكلمة غير المعروفة، واكتشفتُ الإجابة فيها.

كانوا محاربين ومثاليين فيما يخص ما هو مادي، يثقون في صلابتهم، ويتحرقون شوقًا للمستحيل: لا سيما الحفاظ على صقل

سطح عالمهم الصغير ليبقَى لامعًا، على الدوام، أيًّا كان ما يحدث. ما إن يخلو شباك البنك من الجراثيم، سُرعان ما تتسحب البكتريا التالية، أقدم أسلافنا. لم أكتشف إلا هنا أنني أعاني ضعف في البصر تجاه الوسخ منذ ولادتي. فكنتُ بعد أن أنتهي من مسح سلالم البيت، كان الجيران يستدعونني؛ كي أرى حبات الغبار المتبقية. ها نحن قد وجدنا سببًا للحديث على الأقل. لا يعني ذلك أن الأمر يخلو هنا من فقدان تقدير الذات. في الساعات الكئيبة كان كل شخص يسأم من نفسه، ويساوره الشك بشأن أفضل مقوماته. إلا أن حجرة الأطفال لا يمكن تنظيفها تمامًا.

- «لماذ تأتين إلينا؟»

هكذا سألت الطبيبة النفسية.

- «كنتُ بمثابة الجارية لمدة عشرة أشهر.»

تحكي المريضة قصتها في جمل قصيرة وواضحة، وهو ما شعرتُ بالامتنان إليها بسببه. يساعدني التركيز على النقل اللغوي في الإبقاء على المخاوف المتزايدة حبيسة. أُدرك على الفور هذه التروما من خلال الطريقة التي تتعامل بها السيدة مع جسدها، كما لو كان فستانًا مُستعارًا. لقد غادرت الروح في وقت ما هذا الجسد النسوي، ودعت هذه الشريكة التي بلا إرادة والتي خانتها. لقد تمت التضحية بالجسد لإنقاذ الروح. وهما الآن لا يمكنهما الاجتماع معًا ثانيةً. وإذا كان هناك ما تشعر به المريضة حيال جسدها، فهو ليس سِوَى الألم.

- «يؤلمني عنقي.»

تشخص ببصرها للأمام كما لو كانت عليها غمامة. نظرة ضيقة ومحدودة بقدر ما تقتضيه الحياة، توفيرًا للطاقة. إنهم لا يحبونها في مخيم اللاجئين. فهي تصرخ ليلًا، وعندما يتهمونها بذلك تقول أنها لا تعرف أي شيء عن ذلك. إنها تتشاحن مع الجميع، وتشكو من الأطفال الذي يتجولون بالعجلات الثلاثية في الردهة. تشارك الغرفة مع سبعة أشخاص يدينون بديانة مختلفة عنها، ويتمتمون

بصلوات غير مفهومة. وهو ما تعتبره وقاحة. تبدو متعجرفة، ولا تستطيع أن تتقبل أي شيء جديد، وقد فاض بها من فرط ما مرت به بالفعل. ترَى أن هناك الكثير من الجنسيات في المكان وأصوات عالية؛ لذا تطالب بغرفة مستقلة.

- «لقد عايشتُ أمورًا سيئة.»

يواجهونها الحجة بالحجة:

- «مَنْ منا لم يُعايش أمورًا سيئة؟»

إنها تسمع أصواتًا تنادي عليها باسمها، وعندما تلتفت لا تجد أحدًا. كانت تسير مؤخرًا في أحد الشوارع دون أن تلحظ أنها تسير. لقد غادرت نفسها. وهي تتعجب لذلك. ترَى أحيانًا خيالًا في الشارع، يختفي فجأة لتتمكن منها قوة هائلة، وتطرحها على الأرض. تريد المُعالِجة النفسية أن تعرف من المريضة ما إذا كانت قد عايشت الاستقلالية كذلك. فهذا ما تتوقف عليه فُرص علاجها.

- «هل قاومتِ؟»

- «كيف؟ أنا كنتُ حبيسة الغرفة دائمًا أتعرَّض للضرب على الركبتين والكليتين.»

- «مَنْ كانوا هؤلاء الرجال؟»

- «حراس شخصيون، ورجال سياسة. أعرف بعض الوجوه من التلفاز. جزء من ثروتهم كوَّنوه من الإتجار بالنساء.»

- «يندرج الضرب الذي يستهدف الكليتين تدريبات قوات الشرطة والوحدات الخاصة،»

هذا ما أوضحته للطبيبة النفسية. إلا أنها ليست محققة جنائية تحتاج إلى مثل هذه الأدلة كي تحل القضية.

قالت المريضة:

- «حتى الرئيس رأيته هناك.»

تُرَى هل اعتبرت الطبيبة النفسية هذا مجرد هلاوس؟ قد يكون هذا مجرد لبس غير مُضر. فرئيسها لدية عشرات الأوجه.

تتحدث المريضة عن الرجل كما لو كان نوعًا آخر. كلما أساء إليها المزيد من الرجال، اِزداد شعورها بالذنب. ليس الجاني هو مَنْ يخجل. لقد سحبوا منها بطاقة هويتها، فهي إن كانت تحمل بطاقة فهذا يعني كونها إنسانًا. وعندما أرادت أن تعرف السبب قالوا لها:

- «لن تحتاجي إليها، أبدًا سننهي أمورك سريعًا.»

كان من المفترض أن تُباع الجارية لتسافر إلى الخارج، طلب منها ثلاثة تُجار أجانب في أحد الفنادق أن تخلع ملابسها، وعندما تركوها وحدها مع حارس شخصي بعد ذلك ضربته بالكرسي على رأسه، وفرَّت وهي ترتدي شورت وسط الجليد؛ لتنجو بحياتها.

هناك رجل حرص على حريتها. ورتَّب لنقلها، ودفع ثمنه. حيث

جلست خلف كابينة القيادة في شاحنة كبيرة يحميها حائط ثاني. طريقة معتادة في تهريب البشر. كان السائق يتوقف بين الحين والآخر في الغابة؛ كي تغتسل، وتتناول الطعام. وبعد مرور ثلاثة أيام طلب منها الخروج، وقال لها:

- «عليكي الآن أن تعتني بنفسكِ.»

كانت تريد وهي طفلة أن تصبح قاضية؛ لتزج بالمجرمين في الحبس. إلا أنها انقطعت عن المدرسة. كانت أمها تعمل طاهية في مقصف المدرسة. وكانت حياتهما معًا على ما يرام بعد أن تركهما الأب. الرجال لم يكن منهم طائل في مكبهما هذا. حلت زجاجة الويسكي محل العبوة النصف لتر، وبمجرد بزوغ شعر الذقن جاء الاستدعاء إلى الجيش. بعدها ذهبوا إلى السجن بسبب السرقة والضرب؛ ليموتوا في سن مبكرة. شد بعض الصبية عضلاتهم حتى نفخوا قفصهم الصدري.

حذرتها أمها:

- «لا تعبثي مع المافيا.»

عندما بلغت الثالثة والعشرين من عمرها قررت أن تنتقل إلى العاصمة، ووعدت أمها بأن ترسل إليها نقودًا.

- «تنتابني كوابيس. أرَى مَنْ يسلخ عني جلدي، ويمزقني إربًا. يطن في أذني مزيج أصوات غير محتمل؛ مما يجعلني أرغب في القفز من النافذة.»

- «هل يمنعكِ شيء من القفز من النافذة؟»

- «التفكير في أمي.»

تُعد المحادثة التليفونية مع أمها هي الصلة الوحيدة بالوطن. تخرج الطبيبة النفسية، ثم تعود، وترتب الأغراض على الطاولة، وتنهض مرة أخرَى. إنها تحتمي وراء انشغالها، وتقول لي:

- «هذه حالة صعبة. سوف أتخلَى عنها.»

أشجِّع المرأة الشابة في الشارع، وأقول لها:

- «حاولي أن تعيشي الوقت الراهن، وتُعظِّمي من هذه اللحظة.»

- «أذهب إلى المنتزه، ولكن ليس هناك ما يسعدني.»

- «أنتِ أشبه بجندي عاد لتوه من الجبهة. أي أنكِ لا زلتِ تعيشين في الحرب، ولكنكِ سوف تتجاوزين ذلك، وتساعدين نساءً أخريات. ملايين النساء جواري.»

- «أنا أساعد؟ عاودتني آلام العنق ثانيةً الآن.»

لقد حمَّلتها فوق طاقتها. كم أرغب في عناقها، لكنني أخشَى دائمًا من إزعاج هؤلاء اللاتي يتعرضن للمس أجسادهن عنوة. كما أرغب في الفرار منها، من حكايتها. أربت برقة على مرفق يدها على سبيل الحل الوسط.

كسا الشيب شعرها في السجن. تصبغه باللون الأسود الفاحم، وتضع على وجهها المتجهم طبقة سميكة من المساحيق، وتُغلف

الجسد المستباح بشكل عصري. لقد استوعبت داخلها تقديس الجمال المفروض عليها. انتشرت في مآوى اللاجئين إشاعة أنها سيدة «سيئة الخلق». وكان الناس يبررون ذلك قائلين: «من أين لها هذه الملابس؟» تبهت الفضيحة على صاحبها مثلما يبهت الفستان الداكن اللون حين يكون مبتلًا.

بعد عدة أشهر بدأت تحكي عن رجل لا يلمسها إلا بما فيه راحتها، وقد ساعدت لمساته في تعديل حالة فقرات الرقبة لديها. وقد أهداها حارس مأوَى اللاجئين كتاب صلوات، وقال:

– «لا شيء يحدث دون الله.»

انتاب السيدة المُستجدة حلمًا بالخلاص. إذ رأت أنها تقف في الظلام بين جمع من البشر يطرحونها أرضًا. تصرخ وتحاول بكل قوتها أن تدفعهم بعيدًا عنها لتعاود النهوض. ثم تسمع طفلًا يبكي، فتنحني صوب جسد صغير تكسوه الدماء. وفجأة يغطيها ضوء هائل، ويحل صمت وهدوء محل الضوضاء التي كانت تبعثها الجموع البشرية، ثم يدوي صوت منبعث من السماء، ويقول: «كل من ارتكبوا آثام وشرور سيموتون الآن. ولن يبقَى سِوَى الأخيار على قيد الحياة.» عندئذٍ ترَى أناس يسقطون، بينما ينهض الطفل. أخذت تبكي، وتصلي في ظل هذا النور المنبعث، حتى أفاقت من النوم.

إذا غادرتُ مخبأي كنتُ ألقاه، كنتُ تحت رحمته في كل مكان. لن أتمكن أبدًا من الانفصال عنه. مثل زوجة تتحرر من ضغوط الحياة الزوجية بالشكوَى من زوجها في ردهة البيت، أخذت أتحرك في دوائر، وأنا أتلو دعائي، حيث أنا على قناعة من أن هذا البلد الأجنبي يقف حائلًا أمامي؛ كي أعيش حياتي على طريقتي. ما إن كنتُ أتعرف على أحد، حتى كان هناك مَنْ يدسُّ ترانيم الأدعية عن عَقد صداقات وعلاقات في يدي. وإذا ما تعثرتُ أجد أن هناك مَنْ صمم خريطة للمدينة تتضمن كافة العثرات، مزودة بعلامات تعجب حمراء اللون. وإذا اشتريتُ تفاحة أتلقَى معلومات حول أسعار التفاح في المنطقة بأسرها. إذ من الأفضل أن أسلك أبعد الطرق بحثًا عن أرخص ثمرة من فرط الوعي بالأسعار. هنا كان النظام يسود بينما أنا المصادفة البحتة. هم لم يعرفوا التفرد، حيث صنعوا من أفعالي المرتجلة مجموعة من القواعد، وآمنوا بالعودة الأبدية. أوصَى كبار الأطباء النفسيين للأطفال بتكرار التكرار، لكن ببطء، رجاءً! وأفادوا بأن هذه الطريقة تأثيرها أفضل من قطرات مهدئ بالدريان العشبي. أما أنا فكان كل هذا يتسبب في القلق الشديد بالنسبة لي.

كانت أنواع الهوس مصنفة حسب الموضوعات، وكان يحق لي مقابل رسوم عضوية الانضمام إلى أحد الاتحادات، والنوادي، والمجموعات، ومراكز الاستشارات. ولكن تُرَى في أي منها سأكون

مناسبة. لم أصل بعد إلى مرحلة تطوير التخصُّص التقني، فكنتُ آكل كل شيء ممزوجًا بملعقة كبيرة. روح ما قبل الصناعة. كنتُ أصرخ خارج الإطار المحمي لفرقة صراخ أولية مدوَّنة في سجل الاتحاد. مع المسؤول عن تغطية السطح، كنتُ أرغب في التحدث عن قضية أكون أو لا أكون بدلًا من استبدال قرميد السطح، كما كنتُ أعرض على الرجل المسؤول عن تصليح الغسالة كل شيء، بما في ذلك الفرن المعطوب، وساق الطاولة المكسورة، إلا أنه كان يصرُّ على تخصُّصه الحصري.

كنتُ أعيش في قطرة أولية، بينما يوجد انشطار الخلية بالفعل. حتى على الصعيد السياسي. كانت الدولة فخورة بتقسيم القوَى. ولكن مارا لم تبدِ إعجابها بهذا الأمر:

– «نحن نعرف هذا. البعض يمارس السلطة، والآخرون يسلمون ما لديهم.»

كان الحصول على طلبات أصدقاء يسمَّى على سبيل الإزدراء زُمرة. أُصيب السكان المحليون بالذعر من هذا الاختلاط غير المناسب. كنتُ معتادة على أن يساعد الناس بعضهم بعضًا. عندئذٍ كان كل شيء يسير بسلاسة.

لم أتمكن من الحصول من البائعات على أي شيء آخر بخلاف عملهن، كُنّ يبتسمن بوجه أشبه بالقناع، وتُغلف أيديهن البضائع

بإحكام شديد؛ كي لا يبرز منها ثقب غير لائق؛ ليتسبب في إغرائنا بالخروج من أدوارنا المحددة بطريقة خبيثة. عندما كان رفاقي الأعزاء يرغبون في إظهار مودتهم، كانوا يقدمون لي شيئًا مغلفًا ببراعة. ومعه بصمة التصميم.

فقدتُ حق العطاء، إذا أهديتُ أحدًا شيئًا، فتسببتُ له في إحراج. ولم يُسعد أحدًا ذلك، بل إن هديتي كانت تُشعِرهم بالذنب وبرابطة، إذ كانوا يشعرون أنهم ملزمون برد الشيء بالشيء نفسه، وما حاجتهم من الأساس لهذه الأشياء الرخيصة؟ فهم يمتلكون مجموعات من الأغراض الثمينة التي تحتل مكانة عالية من حيث الأحقِّية في الاحترام، كانوا يمارسون معها عبادة تستغرق وقتًا طويلًا، يبحثون عنها في جميع أنحاء العالم، ويخصِّصون لها في الشقة الأنيقة مكانًا ثابتًا، ويداعبونها، ويربتون عليها بنظراتهم، فإذا حدث وتضرر أعزاؤهم، فإنهم يغضبون، ويحزنون، ويستدعون المتخصِّصين في كافة جميع أنواع الشقوق.

الانعزال عن الجمع من أجل إقامة علاقة مع الأشياء الجميلة، رفاهية يتحملها مجتمع لا يعتمد فيه البقاء الأوَّلي على الآخرين. لقد استثمرنا كل شيء في شبكة غنية من العلاقات، وزرعنا العمل الجماعي، وتعاطفنا مع أهواء الآخرين، واتفقنا وعززنا الإجماع باللمسات. من الأفضل إرضاء الجميع على الفور، في النهاية لم نكن لنعرف مَنْ الذي سيُخرجنا يومًا من الورطة. لقد اغتبنا أولئك الذين لم يكونوا موجودين. هذا ما ربط بيننا.

كان الصدق هو النظام المُعلن في هذا البلد. دون مزيد من اللغط، كانوا يقذفون بكلمة لا الرافضة بكل قسوة في وجه من أمامهم. لم أستطع التعود على هذه الفظاظة، حاولت تبديل كلمة لا الرافضة إلى كلمة ربما الرقيقة أو نعم الحماسية. هم إذا غضبوا لا يوارون. فهم يحافظون على النفوس المخلصة، في حالة لا الرافضة، وأيضًا في حالة نعم.

إذا شرعت في الخوض في سيرة أحد، كانوا يوجهونني إلى أقصر الطرق:

- «فلتقولي له هذا بنفسكِ.»

فأتعثر في كلامي من فرط الخجل. هل أنعق في حقل مفتوح دون أن أجد مَنْ يحمي ظهري؟

كانوا يواصلون دفعي. فإذا تجرأتُ، وأجلتُ موعد زيارة حديقة النباتات، كانوا يهددونني قائلين:

- «في المرة القادمة يجب أن تحافظي على الاتفاق.»

حكموا بضمير صافٍ حاملين صولجان تأنيب الضمير. متى يُفترض بنا التلاقي على الإطلاق؟ كانوا يتحكمون في الوقت كما لو أنهم يُسيِّرونه بحبل قصير، أما وقتي فكان أشبه بطيران شديد الانحدار لطائر السنونو. ما إن كنتُ أجنح بعيدًا، حتى كانوا يفتحون أجندة المواعيد. لا يرتدون حلة الزمن أمام شبابيك

المصارف فقط، بل إنهم لا يخلعون ستراتهم وهم جالسون على مقاعد المنتزهات. كانت الساعة هي الصورة الأصلية التي خُلق عليها الإنسان. كانوا يصيحون عندما أنظر إلى الساعة بتجهُّم: «انظري، ها هي الثامنة والثلث قادمة». كانوا يتنقلون من سياج زمن إلى الآخر، وبينهما يختفي الخلود. إذا لم أمتثل لاستبداد الزمن، يقفز من بين عقارب الساعة شيطان حانق ليصرخ قائلًا: «إنها الخامسة». لطالما عرض عليَّ المحبون منهم المساعدة، وتولوا أمر تشكيل مستقبلي. إذا اعترضت المسار يتشابكون مثل أسلاك جهاز قديمة، ويصيحون: «لحظة!» فالارتجال بمثابة الرمال التي تعطل تُرُوس التكنولوجيا المنهكة. يتوقف تشغيل الماكينة، ويُدرج الجنوح ضمن البرنامج. بعد فترة التوقف المزعج كانوا يحذرونني قائلين: «لن يكون هناك المزيد من التغييرات!» كانوا حاسمين للغاية في هذا الأمر. كانت هذه الكلمة محل تقدير.

كنت أعتبرهم معقَّدين، وهم يعتبرونني شخصًا لا يمكن التنبؤ بأفعاله. كانت نظرتي الشاردة تُوقظ الشك لديهم، كما لو كنتُ أجرُّ البلد بأكملها إلى الوحل عامدة. فقط في الإجازات كانوا يحسدونني على تعاملي الشائن مع الساعة، وكانوا يتدربون بشدة، ويأتون رغم ذلك في موعدهم بالضبط لركوب الجِمال. ويا ويلي إذا تأخرت ثانية.

ليست الحرب هي سبب العذاب للقادم منها ، بل المرض الذي يعوق حركته، ويمنعه من النهوض من الفراش، المرض الذي يدفع رأسه إلى الأمام. يجر الرجل ذو الثلاثين عامًا قدمًا أمام الأخرَى، ثم يتوقف ويتنهد. يشير الرجل إلى اليدين، والقدمين، والمرفقين، والظهر، والحوض، والصدر، ويُبدي علامات الامتعاض على وجهه. إنه يُظهر هذا الوجه المُتعض بسبب الألم منذ أشهر في كافة البلاد التي مرَّ بها.

خانتني الذاكرة تمامًا، ولم أتذكر الترجمة الصحيحة لكلمة «مفاصل» فاستعضت عنها بكلمة «عظام.»

أومأ الرجل بحماس، وقال:

- «نعم، إنها العظام التي لا تدعني أنام. ماذا حل بها؟ هل تتفتت؟ ألن أتمكن من تأسيس عائلة أبدًا؟ هل سينتهي بي الحال على كرسي متحرك؟ إنهم يسألوني في مخيم إيواء اللاجئين: هل أنت من جرحَى الحرب؟»

أشعرته الكلمة بالمهانة فأخذ ينتحب. ومثلما ينزلق منه جسده، تنزلق كذلك الفِكَر. يشير إلى رأسه، ويلفه، ثم يدعه يطأطِئ. ظل طوال أربعة أيام في مشفَى الأمراض النفسية، إذ اعتبره الأطباء مضطربًا، إلا أنهم صرحوا له بالخروج بعدها بالكلمات التالية:

- «مشكلتكَ ليست في الرأس.»

يفهم أخصائي الأمراض الروماتيزمية عمله جيدًا، فهو يرد كل المخاوف المتسارعة في كل الاتجاهات إلى مصدرها:

- «إنها الصَّدفِيَّة. عشرة بالمئة من مرضَى الصَّدفِيَّة تظهر لديهم أعراض التهاب المفاصل. كما تُبين صور الأشعة مفاصل ملتهبة. إنه مرض مناعي ذاتي، أي أن الجهاز المناعي يُهاجم الجسم نفسه. نحن لا نعرف السبب.»

إذًا فهي الحرب رغم ذلك، حرب أهلية في بلد الجسد.

- «وما الذي سيحل بي الآن؟»

- «سنُضعِف الجهاز المناعي باستخدام أحد العقاقير. وأنا أضمن أَن حالتكَ ستتحسن، فسوف تتمكن من النوم. كما ستستطيع أن تعتمد على جسدكَ ثانية، وتثق به.»

أخيرًا قال له أحد، لاسيما رجلًا أشيب الشعر في مقام والده، إن هناك شيئًا في هذا العالم الفوضوي يستطيع أن يثق به. ألم يتحمل عناء السفر خصِّيصًا كي يُحدد له طبيب حكيم ماهية مرضه ويشفيه؟

يُدرك الطبيب تأثير العلاج الوهمي لكلماته. إنه لا يكذب، بل هو يحذف الآثار الجانبية للعلاج، ويتحدث بكل الثقة التي يتطلبها الأمر. ويقول إن الدواء مُكلِّف للغاية. ويحدد مبلغًا، لا يتواني مجرم قاتل في بلد المريض عن قتل العشرات من أجله. كل هذا المال فقط لأجل راحته. ولا يتعين على الرجل الشاب رشوة أحدهم.

فالألم يكفي. هنا يتمتع الألم بكرامة إنسانية.

في البداية ظهرت لديه نقاط صغيرة على ظهره، ثم حلت فوضَى الحرب في بلده، فتملكت الصَّدفِيَّة من جسده بالكامل، فتوسَّعت البقع، وزادت حجمًا، وانتقلت من موضع لآخر مثل اللاجئ المتجوِّل المُحمَّل بمتاعه. وسُرعان ما توغلت الصَّدفِيَّة أسفل الجلد، وانتشرت في المفاصل. فتورمت الركبتان، وأصابع اليدين، والقدمان. وعمَّت الفوضَى حياته.

– «لقد فقدت أسرتي، وبحثت عنهم في كل مكان دون جدوَى.»

قصته عن الوحدة هشة للغاية. إنها النسخة المألوفة لإجراءات اللجوء. هذا الرجل الشاب ليس مُغامرًا، بل هو في الأغلب ابن مدلل لإحدى العشائر الكبيرة التي أرسلته إلى العالم البعيد؛ كي يتماثل للشفاء، ويتمكن من إنجاب أطفال. هذا هو القدر الذي يجب أن يعثر عليه مثل ملحمة بارسيفال. إذ يتعين عليه أن يعود واقفًا على قدميه بعظام ثابتة، وليس محنيًّا على كرسي مُتحرِّك. يجب أن يتعرف على جسده، ويستجمعه، ويربطه ببعضه، ومع فِكَره أيضًا.

لقد حدد له الطبيب الحكيم الاتجاه. بدأت العودة اليوم.

دأب الناس في هذا البلد على تكرار الاتهام، بأن المجاملة كانت أمرًا مألوفًا عندهم كما هي لدينا. فالمجاملة ليست أمرًا تربويًّا، بل هي مُداهن فاسد، ومن شأنها خلق مناخ معسول مُضلل للعقل. حيث نهدر المجاملات على ظواهر عابرة غير مُستحقة، وغير مُثبتة مِثل الجمال. وكنتُ أنا أوزع المجاملات هنا وهناك، وأمتدح غمازات هذا تارة، وفستان تلك تارة أخرَى، أو تسريحة شعرها، وكانوا هم يعتبرونني جريئة. والتهمة ذات الهدف الجيد من شأنها التحفيز على التماسك والاستمرار، إلا أنها نصل حاد لنحت الشخصية. وهم في هذا الصدد كانوا يتسمون بالسخاء، ويستعينون بكل أشكال التلاعب باللغة:

«وسَخ عالق بالحذاء، وسَخ خافي عن الجميع.»

«لديكِ ثقب في القفاز، يسبب تيار هواء.»

وسُرعان ما انشق ثقب صغير في العلاقة. إذ كان الاتهام هو الطريق الأمثل لاتهام آخر. فهم يجلسون وراء جدران حصونهم، بينما كان طلب السماح بالدخول باستخدام كلمة لطيفة عديمة القيمة أمرًا مثيرًا للشبهة. أما الاتهام الراسخ في المقابل فيخلق الثقة. استغرقتُ وقتًا طويلًا حتى تعرفتُ على تكتيك الغزو المألوف لديهم. وتوهمتُ أنني لستُ محبوبة، بينما كنتُ محاطة بالاتهامات في بؤرة الحب. أشار أحد المارة المنضبطون ذوو الرباط المحكم بأن رباط حذائي مُنحل، فربطته بسرعة، واستشعرتُ من

نظراته رغبته في مغازلتي.

عقدت رهانًا مع مارا:

- «سوف أدخل في علاقة كُبرى بسبب هذه البقعة على كنزتي.»

واصلتُ نشر معارفي القيمة. رأيتُ شابة غريبة تقود دراجتها على طريق المنتزة، والشمس تداعب أوراق الشجر، حين صاح أحد المارة بفظاظة:

- «ممنوع السير هنا.»

ففسرت أنا الهجوم كالتالي:

- «لا تقلقي، هذه مغازلة.»

تنفَسَت الفتاة بصعوبة، وتصببت عرقًا. فتركتُ لسعيدة الحظ المخطوب ودُّها تلك منديلًا، وتابعتُ سيري في البلاد على استعداد للمساعدة دائمًا.

في بلادنا الدكتاتورية كنا نتمتع بحرية كبيرة فيما يخص الغزل، ومسموح لنا تجريب إمكانات فتح حوار مع ركاب الحافلة العابرين، بدءًا من الشكوى من عدم جدوَى الوجود، وصولًا إلى شُح اللحوم وما بينهما أو العكس. لننسَى بعدها كل شيء مر، ونتعثر في المغامرة التالية. أما هنا فالمغامرات نادرة الحدوث، ووخيمة العواقب. إذا أشحتُ برأسي دون حذر، أتسبب في إطلاق مخاوف زواج، بل إنني جلبتُ لنفسي عرض زواج بهذه الطريقة ذات

مرة. إلا أن شجاعة هذا الرجل الشاب جديرة بالاحترام. وبخلاف ذلك فإن المدرسة الابتدائية هي التي تُرسي حجر أساس الزواج المستقر. فرفيقة الفصل المألوفة منذ الصف الأول، لن تنقلب إلى النقيض فيما بعد. حتى وإن حدث ذلك فهناك على مسافة قريبة عيادة ذائعة الصيت لعلاج مشاكل الأرق.

عندما لم يتوجه إليَّ أحد بالحديث في أروقة الجامعة الطويلة، كنتُ ألجأ إلى مشيتي الأكثر استهتارًا، والتي كنتُ أعتبرها مغرية للغاية. ثم أقترب من بعض زملاء الدراسة المستغرقين بعمق في كتاب قانون العقوبات؛ لينتابهم الفزع.

أشفقت ألما ماتر عليَّ، فأرسلت أفضل أبنائها في محاولة لغزو قلبي. وقد قبَّلني طالب طب بحذر شديد على ضفاف النهر، فقلتُ حينئذٍ:

- «لم أشعر بأي شيء.»

فسألني الطبيب بقلق:

- «هل كان الأمر دائمًا هكذا؟»

وبعد إجابتي بالنفي، لم يلجأ إلى سجله المُخصَّص للغواية كاملًا بل انقشع من أمامي.

كان هناك طالب اقتصاد قومي يخطط للقُبلة مسبقًا، وأخذ يصف لي الشروط المناسبة التي يجب أن نحرص على توافرها، حيث أراد أن يُشركني في القرار بطريقة ديمقراطية، إلا أنني لم

أترك أي شيء رهن المصادفة، ولم أذهب إلى اللقاء.

دعاني ذات يوم طالب يدرس علم الأدب إلى المسرح على أن أدفع ثمن تذكرتي. ذهبنا بعدها إلى مقهَى حيث بادر بسخاء، ودفع حساب شاي الكاموميل الذي طلبته، وهمس لي قائلًا:- «انتظري حتى تنصرف النادلة، ثم ردي لي ثمن شاي الكاموميل.»

أين اختفَى أبطال الحب؟ أدرك أحد محال السوبر ماركت لاحقًا تلك الثغرة بالسوق، ونظَّم دورات في الغزل.

كانت مارا تحلم بسيارة رياضية، ورجل يرتدي سترة جلدية سوداء، تركب إلى جواره السيارة؛ لتنطلق بسرعة جنونية على الطريق السريع. ما إن تحركنا لم يمكننا التوقف، حيث كنا ندور، ونتناوب داخليًا، وندفع الأرق خارجنا. كثير من اللاجئين كانت أول سيارة يقتنوها مستعملة من قبل، أما أنا فقد اشتريتُ درَّاجة زرقاء. عندما كنتُ أشعر بالاكتئاب والكبت، كنتُ أضغط على البدَّال؛ لأتخطَى الغربة وكل ما فيها. عندئذٍ لا يستطيع أحد أن يمسني بشيء. كنتُ مِلكًا للسرعة، وكم تجاوزتُ الإشارات الحمراء، وقُدتُ الدراجة فوق الرصيف، ودخلتُ بها في شوارع ذات اتجاه واحد بالعكس. بل وكنتُ أقود درَّاجتي دون أن أمسك بالمِقْوَد؛ لأهبط بها حارات ذات منحدرات حادة، وأعبر ميادين ومنتزهات دون أن أسمح لأحد من المارة أن يوقفني، رغم أنهم كانوا يوجِّهون إلي السباب من خلفي. كنتُ أدفع غرامات بين الحين والآخر، واعتبرتها بمثابة الإيجار لذلك البيت المتنقل، أول ما يمكن أن

أعتبره مِلكًا خاصًا لي.

- «أنتِ تعانين من تليف سرطاني في الرئة وفي العمود الفقري. سوف نعالجكِ، ولكننا لن نستطيع أن نشفيكي. فلتستمتعي بكل أسبوع وكل شهر.»

هكذا شرحت الطبيبة الوضع للمريضة بثبات كما لو أنها تتحدث عن أمور من الحياة اليومية.

أما أنا فكنتُ أترجم بصوت يبدو وكأنه طبيعي مسالم وأضيف كلمات مثل:

- «فلتستمتعي بكل سنة.»

تقبلت المريضة ذلك بسكينة، واستلقت وهي منهكة وراضية في المشفَى مثل عدَّاءة بلغت الهدف. فسباقها بدأ عندما كانت تهرب من قرية لأخرَى حاملة ابنها بين ذراعيها. لقد سحبوا زوجها فوق عربة مصفَّحة عند إحدى نقاط التفتيش. وكانت تتمنَى أن تُغسِّل جثمانه، لكن لا بُدَّ وأنه يرقد الآن في إحدى المقابر الجماعية.

- «أريد أن أعيش لأجل ابني. لقد ربيته جيدًا، وهو مطيع، وسوف يشرف بلدكم.»

همهمت الطبيبة قائلة:

- «بلدنا ليس جنة.»

ولكن المريضة تعرف هدفها:

- «أنتم هنا تحترمون حقوق الإنسان.»

في ضجيج قاذفات القنابل، ووسط صرخات المصابين وصمت الأموات، لا بُدَّ وأنها سمعت عن حقوق الإنسان. فحقوق الإنسان بمثابة البيت المقدس ذي السقف الكبير، حيث يحقنها ملاكها الحارس الذي يرتدي المعطف الأبيض بالعلاج الكيميائي بكل حنان.

حذرتها الطبيبة قائلة:

- «لن يكون الأمر سهلًا بالنسبة لكِ ولابنكِ، فأنتما هنا في الغربة.»

- «الغربة؟ لقد خلَّفنا الغربة وراءنا بكل فظائعها، ووصلنا إلى بيتنا الآن.»

انتشر الورم السرطاني في جلد ثديها الأيسر، لذا كانت تئن من الألم إذا لم تتناول مسكنات. حتى عمودها الفقري يؤلمها حيث امتد السرطان إليه من الثدي. وعندما تصعد السلم يسبب لها السرطان صعوبات في التنفس.

هزَّت الطبيبة رأسها، وقالت:

- «لماذا تركتيه يتفشَى هكذا؟»

كانت وقتها في مشفَى دمَّرته القنابل، وقابلت نساء في مثل عمرها ضحين بأثدائهن؛ كي يتمكن من مواصلة الحياة لبعض الوقت.

تحسست طبيبة أمراض النساء موضع الورم وأمرت بصرامة:

- «يجب استئصال الثدي!»

قاومت المريضة بغضب، فقد خسرت الكثير بالفعل، ولم يوضح لها أحد أن عنادها قد يؤدي إلى هلاكها. مَنْ لم يقضِ نحبه تحت الصواريخ أو بسبب التعذيب، لن يتمكن منه السرطان. هكذا يقولون في بلدها. والإصابة بالسرطان ليست جريمة ضد حقوق الإنسان. ولن يفرض المجتمع الدولي عقوبات لهذا السبب.

بعد مرور أسابيع كانت المريضة تستلقي في فراش المشفَى وقت غروب الشمس التي أدارت لها ظهرها. رسمت الطبيبة النفسية ابتسامة عريضة على شفتيها وأبقتها هكذا. فهي أشبه بإحدى أدوات العمل. إلا أن المريضة اعتبرتها ابتسامة حقيقية، وهمهمت قائلة:

- «جميعهم يتسمون بالود هنا.»

تتلقَى قبل جلسة الإشعاع جرعة مورفين مما يجعلها تهذي. كانت تراهن على الطاعة، كما لو أن السرطان طاغية يمكن أن يلين بهذه الطاعة.

- «أبتلع الأدوية، وآتي في مواعيد جلسات الإشعاع. هناك آخرون يستهترون بالأمر، ويتأخرون.»

تبث الطبيبة النفسية بعض اليأس كالمعتاد:

- «ماذا لو عجز الطب؟»

- «ليس الطب، الرب هو مَنْ يقرر. وهو سيتركني أعيش.»

- «ماذا لو جاء قرار الرب مخالفًا؟»

سندتها طبيبة العلاج النفسي بيد متمرسة، وقالت:

- «هل شرحتِ لابنكِ حالتكِ؟»

نظرت المريضة إليَّ نظرة يملؤها الكره، كما لو أن الطعنة جاءت مني. نادتني باسمي الأول دون ألقاب، وهي تطلق صوت فحيح مثل الأفعَى التي تتخذ وضع الدفاع عن النفس. أتحمل بالكاد نظراتها التي تهاجمني من ناحية، وتتوسل إليَّ طلبًا لأخبار جيدة من ناحية أخرَى. فجأة حل القلق عليها. فأنا لا يجب أن أنقل الإنسان بأكمله فوق عبارة اللغة بل كلماته وحدها.

ترغب الطبيبة النفسية أن تغلق ملف الحالة:

- «لا بُدَّ وأنكِ أعددتِ ابنكِ جيدًا للحياة. هل لديكِ أقارب في بلدِكِ؟»

- «لا، زوجي مُتوفَّى.»

عرفتُ من أشخاص من نفس بلدها أن زوجها يعيش مع سيدة أصغر سنًّا، ورُزِق منها بخمسة أطفال. أي أن الابن لديه أب يمكن إرساله إليه بعد وفاتها. ولكن إذا اعتبروه يتيمًا يحق له البقاء هنا بوصفه قاصرًا. ظل مذاق ماسخ عالقًا بلساني، ذلك اللسان الذي

يتعين عليه تغليف كذبة في ثوب لغة.

أفادت مديرة مكتب خدمات الترجمة برأي صريح وواضح في موضوع «الكذب»:

- «ليس من مهمة المترجم استقصاء الحقيقة.»

ودعتني الطبيبة النفسية، وقالت:

- «لم تعُد بحاجة إليكِ. ينمو الورم بسرعة شديدة، ويمكن أن تدخل المريضة في غيبوبة بأي وقت.»

إلا أنها عاشت طوال عام ونصف العام، وقبل وفاتها بفترة وجيزة عادت إلى بلدها لتموت بها. رافقها ابنها، وهو يعيش منذ ذلك الحين مع والده.

كنتُ أبحث أنا ومارا عن فرصة تؤدي بنا إلى قلوب سكان البلد. فمَنْ يعرف الطريق يكون حاله جيد. «هل أنتِ بخير؟» هكذا كان السؤال الذي ينمُّ عن قلق يتردد باللهجة المحلية عن الحال. كنتُ أخرج في جولات استطلاع ميداني، وأسأل بعض المارة عن الطريق، فكانوا يخرجون عن وقارهم، ويقودوني إلى الهدف شخصيًّا. وفي الطريق يتحدثون بودٍّ عن تشعُّب الطرق. وبعدها أُجري تجارب بذكر الكلاب، فأحيي الكلاب البولدوج التي تقفز عليَّ، وأسأل عن أسمائها. وسُرعان ما يمدوني بمعلومات عن الأنظمة الغذائية، ومحتويات بُرازهم. كان أصحاب الكلاب يحبون الثرثرة، ولكنهم كانوا يتمسكون بالموضوع المحدد، ولا ينتقلون في الحديث من حاجات الحيوانات إلى حاجات الإنسان. وإذا أردتُ تغيير الموضوع، يتعين عليَّ الحصول على موعد. إذا كنتُ سألتُ في بلادي أحد المارة عن كلبه، كنتُ سأدرك بالتلميح أنه يرغب في الايقاع بي واصطيادي.

اكتشفت مارا أن آلام الظهر لا تزال مناسبة أكثر لأغراض الاستمالة. إذ أننا لم نعهد هذا البلد أكثر رغبة في مدِّ العون إلا عند اتخاذ وضع الانحناء. ربما ظن المواطنون والمواطنات أننا ننحني أمامهم مما مسَّ شِغاف قلوبهم. إذ كانوا يسألوننا برهافة حسٍّ ما إذا كنا نسمح لهم بمساعدتنا لركوب الحافلة. وفي تلك الأثناء كان هؤلاء المتحوِّلون إلى طاقم رعاية صحية، يريدون معرفة محل

إقامتنا، ومنذ متى نسكن هناك، وفي أي طابق؟. تلك الأسئلة التي كانوا يعتبرونها بمثابة التقارب شديد الجرأة. ليعذبهم بعدها تأنيب الضمير؛ لأنهم تدخلوا بشدة في أمورنا.

في المشفَى كانت السماء تنفتح على مصرعيها. حيث يتلقَّى المرضَى اهتمامًا ورعاية بجرعات مكثفة تبعث على الشفاء، بما في ذلك من تربيت وحِنِّية نادرة لم يكن الوالدان ليمنحاها لأطفالهما. إذ كانت المرضات ومُتخصِّصات التربية العلاجية يتعلمن في المدارس المهنية المُتخصَّصة أن الاتصال الجسدي يندرج ضمن مهام المهنة، للأسف، ولكنه أمر لا بُدَّ منه. لذا كُن يلامسن المرضَى بكل نشاط وهمة لدرجة تشعرك بأن الأمر يكاد يكون طبيعيًّا، مع إضافة كلمة مواساة مُقتبسة من الكتاب التعليمي، فضلًا عن إيماءة تفهُّم. بينما كان المشرفون على الموت يحظون بكل ما هو أفضل. حيث كانوا يتمتعون بمسحة على الرأس. وراء أسوار المشفَى يقبع بلد داخل البلد، حيث تسود عادات أقل صرامة، كما بطل الاتهام هنا، لدرجة أنهم كانوا يوزعون كلمات الثناء مع كل ملعقة من العصيدة يبتلعها المرضَى طائعين. كان المشفَى بمثابة أرض التنابلة. قضيتُ به ذات مرة ثلاثة أيام، وكنتُ أشعر بأعراض الانسحاب عند مروري به.

كان بالإمكان تلقِّي كلمات المديح حتى خارج الوحدات الصحية. فما إن كانت مارا تقول: «أنا نتحدث ألمانيا ولكن صغير» حتى تحظى بالاعتراف. يتحدث الناس بصوت عالٍ مع الأغراب، الذين

يعتبرونهم ضعاف السمع. أو معاقين على أي حال، ومن المفترض أن يتعامل الناس بحنان مع المعاقين. إذ كان علم الإعاقة التربوي متطور للغاية. فلا يتعرض أصحاب الإعاقة إلى الحبس والإخفاء في غرف مظلمة، بل يُساقون في مجموعات خارج الجدران في رفقة فردية لمشرفين. وضعف الأغراب كان أمرًا محببًا. وإذا حاول هؤلاء الضعاف التسلح بالقوة بما يفوق المعايير المحتملة، يسحبون منهم هذا الحب.

كنتُ أنا ومارا نرسم لأنفسنا سيناريو مرعبًا: مجموعة كبيرة من الناس الجميلة تأتي إلى المدينة، وتتسبب إشعاعات إشراقاتهم في إطلاق أجهزة إنذار المفاعلات النووية. فالأشعة لا ينبغي أن تنطلق سِوَى من المَوْقِد. إذا كانت جارتي تنتظر عشيقها كانت تنظف حوض الغسيل بالفرشاة بدلًا من أن تنظف نفسها. فهي تعرف أين اعتادت نظرات الرجال المحبة التوجه. أما الجسد الأنثوي فكان يمتد حتى المطبخ. وهم يقولون عندما يرغب أحد الرجال توجيه التحية والتقدير لزوجة صديقه: «تحياتي إلى المطبخ.»

كانت مارا تقول: «يحتاج هذا البلد إلى حيوانات ومعاقين وأغراب.»

بمجرد النظر إلى الضعفاء يتلاشَى الخجل الذي يسبب الشلل وتسقط عتبة التثبيط، ويستطيع أهل البلد خلع طريقتهم الرسمية، ويتحدثون بحرية وجرأة كما تعلموا - عن الأمور العملية. وعلى الفور يشرعون في الاستمتاع بمراقبة الجِرَاء التي تتدحرج أمامهم،

والأغراب العابرين وقد اعتراهم انعدام الثقة، فيصبحون مدراء حديقة حيوان، ومربيات بدار حضانة، وأخصائيي علاج نفسي، واستشاريي مشاكل أسرية، ثم لاحقًا موظفي شؤون اندماج، وموظفي بنوك. في عالم المال البعيد – وهذا ما أعرفه بالسمع فقط – تتسع الحدود الصغيرة. هناك كان النمو مطلوبًا، وتضاعفت النشوة، ووضِعت المشاعر القيِّمة في خزانة مؤمَّنة ضد اللصوص من الخارج، وليس ضد أصحاب الأقنعة الملثمين من الداخل.

كان القلب مسكينًا في هذا الصدد! حيث قمعه حاكم استعماري متعجرف. وما إن اكتشفنا أن البلد تصبو إلى الاستقلال سرًّا، وإلى جر القلب الخجول إلى الهواء الطلق، انطلقنا. كم كان يسهل عليَّ أنا ومارا أن نبكي، وأن نُقسِم بالصداقة الأبدية، وأن نتمسح في أجساد مشدودة، ونحدس فِكَرًا حميمية – ثم ننطلق من أن شيئًا لم يحدث. إذ كانت لحظة الشعلة المتصاعدة هي التي يُعتد بها. لتبقَى بعدها الأرض المحروقة. كنا نواجه الخوف والريبة وكذلك الحسد على طريقتنا المتحررة. لم يفهم بعض الناس انطلاقنا بوصفه بداية لصداقة مدَى الحياة. وسُرعان ما أصبحنا موسومين بسمعة سيئة، وأننا نتسم بالخطورة. ونحن كنا فقط قد أخطأنا المسار، أشبه بعدائتين ضلتا الطريق أثناء سباق ماراثون.

هناك شاب طويل القامة ينتظر في مقر استشارات اللاجئين. لا يبدو عليه أي أثر لصدمة، أو علامات ضرب. بل هو أشبه بمَنْ ينعم برعاية جيدة. إنه لا يحمل بطاقة هوية، ولم يحملها من قبل مطلقًا، بل هو لا يعرف ما بطاقة الهوية من الأساس.

قالت له موظفة الشؤون الاجتماعية:

- «دون هويتكَ ستؤلب السلطات ضدكَ. ألا يمكن لوالديكَ أن يوفرا لكَ بطاقة هوية؟»

- «لقد قضَى والداي نحبهما في حادث حريق اندلع بالمنزل حين كنتُ صغيرًا بعد.»

- «كيف تمكنتَ من الذهاب إلى المدرسة دون أوراق ثبوتية؟»

- «أنا لم أذهب إلى مدرسة.»

- «أي أنكَ لا تعرف القراءة والكتابة؟»

- «بلى، جدتي التي كنتُ أعيش معها في القرية علمتني القراءة والكتابة.»

ثم أعلن وفاة الجدة كذلك - دون أدنى تغيير في نبرة صوته. وقال كذلك إنه بعد وفاتها بثلاثة أيام، انتقل للعيش في العاصمة. إذ يبدو أن الشاب لا يعرف أنه بعد الوفاة هناك جنازة ودفن، كما يتبعهما إجراءات نقل الميراث والملكية للحفيد الوحيد للمتوفَّاة.

كانت موظفة الشؤون الاجتماعية تتحدث بلكنة قوية. فهي نفسها كانت لاجئة. نصحت السيدة الشاب بأن يقول الحقيقة أمام سلطات اللجوء، وألَّا يورط نفسه في تناقضات الكذب، وكذلك بأن يجيب على كل الأسئلة. إذ أن مصيره يتوقف على جلسة الاستماع هذه التي تستغرق عدة ساعات، وعليه أن يتحملها برباطة جأش.

- «في العاصمة خرجتُ في إحدى المظاهرات، وأُلقِيَ القبض عليَّ. أوسعني رجال الشرطة ضربًا، وأجبروني على التوقيع على اعتراف بأنني شاركت في حوادث سطو وسرقة. فهم كانوا يحتاجون إلى مجرم يحمِّلوه كل القضايا التي لم تُحل بعد.»

حتى هذه الأحداث رواها دون أن يطرف له جفن. من الواضح أنه يعيش في دار إيواء اللاجئين، لأول مرة إكراه وقهر أشبه بما يحدث في السجون. فقد حرموه ذات مرة من طعام العشاء؛ لأنه تأخر خمس دقائق، وطردوه ليبقَى ليلة كاملة خارج دار الإيواء- حيث بات ليلتها في أحد المنتزهات. لقد فقد أعصابه بسبب هذا الظلم الكثير.

- «هذه هي قواعد سلطات اللاجئين. يجب أن تلتزم بها.»

وبغرض رفع معنوياته، هنأته لأنه لم يتم إيداعه في مخبأ نووي تحت الأرض بعدة أمتار، حيث يجب أن يتقاسم تسعة عشر لاجئًا من بلاد مختلفة الحُجرة.

همهم قائلًا وقد اعتراه الفزع:

- «لم أكن لأتحمل ذلك.» ثم اشتكَى من أن الحراس ينعتونه برجل المافيا.

- «لا تُعرهم انتباهًا. فقد كانت لهم تجارب سيئة مع أشخاص من بلدكِ.»

قال الفتَى أنه تعرَّف على أحد الأشخاص من بلده مدمن مخدرات، حاول أن يغويه ويجره إلى أعمال مشبوهة، إلا أن أحد اللاجئين الأكبر سنًّا حذَّره وقال له:

- «كن مرتابًا، وانظر في عيني الرجل. إذا كانت نظرته مبهمة فلتبتعد.»

بعدها قال لمدمن المخدرات:

- «أنتَ من طريق، وأنا من طريق.»

- «لقد أحسنتَ صُنعًا.»

عاد صوته ليصبح مثل الآلة، واتسم أسلوب السرد بالجفاف. حيث قال أنه كسر زجاج نافذة قاضي التحقيقات حينما غادره القاضي، ثم قفز منه إلى الخارج.

- «ليس هذا بسبب للجوء. هل يمكنكَ إثبات ذلك؟»

- «لا.»

- «هل لديكَ مشاكل صحية؟»

- «أشعر بأنني على ما يرام.»

- «على الأقل هذا.»

قالتها موظفة الشؤون الاجتماعية، ولم تبتسم أبدًا. حتى حينما صافحته وهي تودعه. أشعلت سيجارة بسرعة شديدة في الخارج، وقالت لي وهي متعبة:

- «سوف يودعونه سجن الإجلاء بعد جلسة الاستماع، لمدة أسابيع أو حتى أشهر حتى تستقبله بلده. إذا كان قاصرًا حقًا كما يزعم لكان الأمر أصعب. لكنهم قاسوا عظام معصمه فور وصوله. إنهم كثيرًا ما يخلطون القليل من السياسة في حكاياتهم، كما لو أنهم مضطهدون سياسيًّا. هذا هو ما ينصحهم به مهربوا البشر. أشعر أحيانًا بالأسف لحال هؤلاء الصبية.»

أخذت نفسًا طويلًا من السيجارة، واستنشقت الدخان بعمق. إن نفوذها محدود بشدة. بدا الإحباط على وجهها. إلا أنها رغم ذلك انبرت بشجاعة، وخرقت الالتزام بالسرية. هل سمحت لنفسها بذلك لأننا أغراب فيما بيننا؟ نظرنا إلى السجن الكائن إلى جوار دار إيواء اللاجئين. وكانت هناك يد تلوح لنا من بين قضبان السجن.

كان أهل البلد يتمتعون بجانب طيب. أدركته من كوني أشعر بأنني شريرة. إذ يحظَى الأغراب بميزة الاسترسال في الحديث دون مقاطعة، كما لو أن مَنْ خذلهم القدر لا يمكنهم تحمل الاعتراض. كنتُ أترك نفسي لهذا الإغواء، وأسترسل في مونولوج فردي طويل من فِكَري غير المرتبة. كانوا يُومِئون بحزن، ولا يفصحون عن أي شيء من تلقاء أنفسهم، الأمر الذي يُشَخَّص «بإزالة التثبيط»، بل كانوا يشجعونني على التحدث عن حالات التمييز، حتي يتمكنوا من السخط على مواطنيهم الأشرار. الذين يريدون بدورهم تخفيض كم الأجانب إلى النصف، ويبررون ذلك بشكل حسابي بحت، لاسيما بأن نصف عدد الأجانب أو بالأحرَى الأغراب من شأنه أن يقلل تهديد الخاصة بمقدار النصف. فانقسم البلد. هؤلاء الذين اتخذوا جانب الأغراب وشملوهم بالحماية، كانوا يحتاجون إليهم بوصفهم درع الحماية في الحرب الأهلية الفكرية، وكانوا يحاربون بجدِّية مقدَّسة تتناسب وجدِّية الموقف. فهم يعرفون مدَى سوء الحال بالبلاد. لذا كانوا يسألون بقلق:

– «هل تتغذين تغذية صحية؟»

كنتُ مُقاوِمة للقلق، وكان القلق ذا قيمة عالية. ما إن كانوا هم يشبوا عن طوق الطفولة، حتى يشحذوا زناد فكرهم بكل مسؤولية بشأن المعاش التقاعدي. كان الاحتياط يسبق القلق. وإذا أولَى أحدهم القليل من الاهتمام فقط للقلق، آل به الحال إلى

المعونة، وإذا نضبت تلك يتبقَى ما يكفي من الرعاية اللاحقة. لقد بلغت البلاد مرحلة النضج من خلال القلق، وانتقلت من القلق إلى الرخاء. ظل القلق يحظَى بالدعاية دون كلل على أن الحياة في ظله مريحة. ولم يكن سِوَى كلمة راقية عن خوف شائع ومعتاد جدًّا. أثبتت النظرة من وراء نظارات القلق المُوَاطَنة التي تكاد تكون واقعية. حيث ينظر الهم النخبوي بازدراء إلى الاستهتار الأحمق.

كان نومي العميق مريبًا، حيث كان الأرق يضمن سكونًا ليليًّا على قدر كبير من المسؤولية. لم يكن التفكير في النوم واردًا، والحياة اليومية مرهقة، تجلب الكثير من الأمور التي ينبغي اتخاذ قرار بشأنها على نحو ديمقراطي. مَنْ الذي سيصبح المفوَّض الجديد لحمل القمامة خارج البيت؟ هل ينبغي تعليق مفتاح القبو بشريط أحمر- أليس هذا بالأمر السياسي للغاية؟ عُقدت جلسة، ووُضِع جدول الأعمال، وطُرحت المشكلة من المهد إلى اللحد، وطُلِب من كل شخص أن يُكوِّن رأيه الخاص بكل حرية؛ لأن ذلك واجب وطني. كانت بنية المحادثة النموذجية تُدرَّس في مدارس العمل الاجتماعي، وانتشرت من هناك مثل الوباء.

تحمَّل المجتمعون عبء الديمقراطية بكل شجاعة. كانوا ينصتون بعضهم إلى بعض، ويعارضون بعضهم أيضًا، ولكن بموضوعية وفق قواعد الكياسة والاحترام. تناولت الجلسة ما هو صغير، وقابل للتنفيذ وقريب. ما لا يمكن توقعه والتخطيط له مسبقًا بكل التفاصيل هو الدخان. إذ أنه ليس بالإمكان بناء أي شيء من

الدخان، باستثناء قصور الدخان. تفصيلة تلو الأخرَى، موعد تلو الآخر، تقدم بوتيرة خطوات السير، ودائمًا وأبدًا السؤال المفتوح: «هل يوافق الجميع؟» عندئذٍ ينفضح أمر المصابين بالديكتاتورية، حيث يتحرقون شوقًا للتدخل واتخاذ قرار، ومِن ثَمَّ تعطيل المكابح، ومنح المسألة مزيدًا من الزخم. وأنا إذا تثاءبت فكان هذا يعني أنني أُظهر كوني لستُ شخصًا أفضل، وأن المنضمين اجتماعيًّا وديمقراطيًّا يزيحون الستار عن جانبهم السادي: كانوا يكررون أكثر النقاط كآبة حتى تفرغ الرؤوس ما بداخلها، وتبدأ الاستنارة. هل أتسلل مبتعدة على ألا أعود ثانية أبدًا؟ جرَى بالفعل عرض برنامج الموعد التالي. معايشة الملل ببطولة دون تذمر مع تقديره بوصفه إنجازًا سياسيًّا رائعًا. فالناس كانوا مقتنعين بأن المستعبدين المساكين في ظل الحكام الديكتاتوريين لم يعرفوا محاسن الملل.

أخيرًا، وبعد التوصل إلى الإجماع المتصارع عليه بجهد، أُرسي نظام جديد، ووُضِع حد لبخار الفِكَر، وجرَى اختيار المسؤولينَ في انتخابات حرة. لم يرافق الصراخ مولد لوائح جديدة. وكذلك عند وصول مواطنين صغار، لم تصرخ النساء المُولِّدات من أهل البلد مثل الأغراب. لا يصرخ الناس في مكتب ما، والبلد بأكملها بمثابة مكتب الأعمال. حيث يحظَى الأطفال الصغار بمهام مُصغَّرة من والديهم مثلما يحظَى أمثالهم في أماكن أُخرَى بالحلوَى.

– «أنتَ تجمع فُتات الخبز من على الطاولة، وأنتَ تمسح العرق،

وأنتَ تكسر البندق.»

كان اليوم مليئًا بالفُتات والعناء، وقطرات العرق تتساقط على حبات البندق الصغيرة.

- «إذا لم تنجزي إحدى المهام الصغيرة لن تحصلي على قطعة نقود معدنية. سندع المسألة تمرُّ مرة واحدة، ولكنها لن تُعاد.»

كانت الطفولة أشبه بالوظيفة، منظمة مثل حديقة المرور. يوم الأحد يجلب الأهالي البراعم الصغار للتنفيس عن أنفسهم أمام إشارات مرور التدريب. حيث يتعلمون رؤية إشارات التوقف من مسافة بعيدة؛ ليتعلم العقل مبكرًا أين كان يتعين عليه التوقف. عند كل تقاطع فكري حتى لا تصطدم الفِكَر ببعضها، وتقف متعطلة، وتصدأ بانبعاجات التصادم.

وإذا طرحت بإحباط المصاب بجنون العظمة:

- «أين يكمن مغزى الأمر برمته؟»، كانوا يوجهون إليَّ الحديث قائلين:

- «حذارِي! الإشارة حمراء.»

كان مدربو القيادة الحريصون نموذجًا يُحتذى به للشباب، مثلما هو الحال بالنسبة للثوار الذين ينزفون في أماكن أخرَى. كان الناس يشاهدون الثورات من بعيد، ويرتجفون ويؤكدون: «لقد تجاوزنا هذا العنف المتخلف منذ زمن طويل.» فلم يضع أحد

لافتة تحذير لمثل هذا التخلف: «حذار، حالة متداعية للسيدة! خطر الانهيار! نحن نتحمل المسؤولية.»

سأل المعالج النفسي قائلًا:

- «إذا وضعوكي غدًا في الطائرة المتجهة بكِ إلى وطنكِ ماذا ستفعلين؟»

- «لن يتمكن أحد من ذلك؛ لأنني سأكون قد مِتُّ قبلها.»

- «لماذا لجأتي إلى بلدنا تحديدًا؟»

- «ألا يقولون في العالم كله أن هذا البلد هو الأكثر إنسانية على الإطلاق؟ فالجميع يأمنها على أموالهم، وعلى أسرارهم؟ كنتُ أظن أنني سأكون في أيد أمينة هنا.»

- «لقد راهنتي على ورقة لعب واحدة، وخسرتي.»

بدأت المريضة ترتجف وتهتز، اهتزت اليدان وصدرها أولًا، ثم الساقان، على الرغم من أن درجة الحرارة قد تجاوزت الثلاثين، لكنها كانت ترتدي كنزة من الصوف سوداء اللون. كما لو أن ذلك من شأنه مساعدتها على التشرد، وانعدام السكن.

- «يكمن واجبنا في حماية صحتك النفسية والبدنية، إلا أن ذلك يتم في إطار القانون. ونحن لا يسعنا التدخل في قرار رفض طلب اللجوء الصادر عن مصلحة الهجرة.»

كرر المعالج النفسي كل فكرة ثلاث مرات، دون أن يجهد نفسه مرة واحدة، ويبدل المفردات المستخدمة بأخرَى. كنتُ أقاطعه؛

لأترجم بإيجاز واقتضاب. فتصيبه الدهشة، ذلك الرجل طويل القامة حاد الملامح المعتاد على مَنْ ينصت إليه دون معارضة.

يظهر الإنسان مع أولَى عباراته. والترجمة الفورية هي الأعراف أو نار التطهير؛ حيث يحترق كل شيء، ولا يبقَى سِوَى الذهب. ذات مرة ترجمتُ لموظفة شؤون اجتماعية، كانت تُصاب بالتوتر مع كل مسألة تافهة، لدرجة أن رقبتها تكتسي بالحمرة. كانت تكرر ما تقول أكثر من مرة مع التأكيد عليه، واشتكت في مكتب خدمات الترجمة الفورية من أن لغتي مقتضبة للغاية عن لغتها. فأنا أعمل على إعادة التدوير، ولا أنقذ من قمامة الكلمات سِوَى القطع الأكثر إفادة.

يعمل المعالج النفسي بجدية مصطنعة، وتعاطف متكلف، وأسئلة نمطية موحدة. ولا يسمح لنفسه بحركات يد لا إرادية. مسرحية مهذبة فقيرة لغويًّا وتعبيريًّا. هكذا يمكن تعلم علم الأرواح مثل تعلم القيادة. إذا دخلت في حارة سد ما عليك إلا تفعيل آلية السير إلى الخلف. لا يصبح هذا المعالج النفسي إنسانًا سِوَى حين يرن جرس الهاتف، ويصدر صوت طفل يقول: «أبي»، فيضحك مستمتعًا، ويهمس قائلًا: «حبيبي». وسُرعان ما يعود ثانيةً؛ ليصبح ذاك السطح الخاوي الذي تستطيع المريضة عرض كل شيء عليه. ومن الواضح أن هذه الحيلة أفلحت، لأن المريضة قالت:

– «أشعر أنكَ تفهمني.»

وبعدها مباشرة تطالبه قائلة:

- «فلتشفيني.»

أجلس بجوارها، وأشعر بالخجل بسبب تلك المرأة التي من نفس جنسي. بينما يقف في مواجهتنا جِدار يشكِّله أربعة رجال - إذ يكتب إلى جانب المعالج النفسي القائد ثلاثة أطباء مساعدين شباب ما يدور بكل حماس، ويخترقون داخلها ليفككوها. ثم يناقشون ذلك باللغة المُتخصِّصة فيما بينهم لاحقًا.

عندما بدأت المريضة تحكي، وتقول أنها كانت جبانة، ولم تستطع أن تقتل نفسها، تمنى المعالج النفسي أن تحميها هذه الصفة الجيدة.

- «هلا وعدتيني بأنكِ لن تصيبي نفسِك بضرر هنا في هذه المصحة.»

مدَّ كل منهما يده للآخر من فوق الطاولة باحتفاء. فهذا تصرف من الطقوس المعتادة في التعامل مع المرشحين للانتحار. إذ يقطعان عهدًا بهذه الطريقة مع الحياة، مما يرقَى بالمريضة إلى درجة الشريكة الأمينة على العقد، وهو ما يلزم الأنا بداخلها على التنفيذ. أي أن الانتحار يُعدُّ خرقًا للعقد.

حينئذٍ قال المعالج النفسي شيئًا تأثيره أفضل كثيرًا من أي عقد:

- «سوف أكتب إلى مصلحة الهجرة، أنكِ تمرين بمرحلة حرجة فيها تهديد لحياتكِ، وأن استقرار الحالة يستلزم عدة أسابيع

مع تناول العقاقير؛ لذا لن يمكنكِ السفر قبل ذلك.»

شكرت المريضة المعالج النفسي بحماس غامر، كما منحها هو بدوره حكمة غير ثورية على سبيل المحفز الفكري، حيث اعتبرها أقرب إلى الواقع، ومِن ثَمَّ حكمة صحية:

- «أنتِ تبحثين عن العدالة، ولكنها ليست موجودة في الحياة. وأنتِ تعرفين ما الذي حل بالرسول الذي سلك طريق العدالة.»

لا يسري قانون الغابة، وحق الأقوَى بإيماءات التهديد في منتزه. الانتفاخ الناتج عن العصبية، ورفع الصوت، وابتكار تكتيكات حقيرة بغرض تحقيق غرض ما، كل هذه الأمور ليس لها أي تأثير هنا. إذ يكفي فقط أن تؤدي واجباتك الخاصة بضمير. لا يجب أن يتجاوز الإنسان كل يوم مئات العقبات بطريقة جديدة دائمًا. ولم يكن تسبُّب ذلك في إضعاف الحواس والشعور بأن الناس مملين سِوَى دليل على أن الأمور تسير هنا على نحو متحضِّر. نادرًا ما تنفجر صمامات الأمان، إلا تلك المثبتة في الجسد أو الروح؛ لنحترق حينها بسبب تأمين الذات لا غير.

إن عدم اليقين الظاهري شائعًا ومحببًا. فهم يضيفون دائمًا كلمات مثل «حقًا» أو «أليس كذلك»؛ كي لا ينشأ انطباع بأنكَ تزعم بمعارفك الخاصة على نحو غير ملائم، وتريد منع مناقشة ديمقراطية. يؤيد شركاء الحوار بكل ودٍّ استفسارَكَ باستخدام «حقًا» أو «أليس كذلك» بعد كل جملة، فهي وسائل تُفصح عن إنسان مهذب قادر على الشك في نفسه. حذاري من الثقة بالذات التي تصل إلى حد العجرفة، أليس كذلك؟ بالطبع يكون الشخص مقتنعًا برأيه الخاص، ولكن يجب الحفاظ على المظهر.

أرادت مارا أن تُبين إلى أي مدَى تواءمت، وصاحت قائلة:

– «حيَّاك الله، أليس كذلك؟»

إن التواضع هو عظمة هذا البلد. عندما يخرج الأثرياء من فيلاتهم، فهم يرتدون كنزات رمادية مهدلة على بنطال جينز، اجربَّ لونه من فرط الغسيل. وإذا لفت أحد الأنظار إليه بسبب فخامة الملبس والألوان الصارخة، فيتضح أنه لاجئ عديم التذوق. يستقل وزير الاقتصاد الترام، ويسافر وزير التربية والتعليم بالقطار في الدرجة الثانية. كلاهما يشتري تذكرته، وربما ليس من أموال الضرائب. كان وزير المالية المدبر هو المفضل لديَّ، حيث يركب دراجته، ولا يتحرك في رتل من السيارات المصفحة على جانبيه. وعندما كنتُ أتجاوزه بدراجتي كان يلوح لي بلطف. أما وزير الداخلية فكان يتحرك سيرًا على قدميه، ويتفقد أحوال البلاد بكعب مسطح. لا يجلس على صهوة الجياد سِوَى الفتيات المهذبات اللاتي يُهرولن في دوائر على مضمار مطروق. في المنظر التقليدي عن الساحة الأمامية لحدائق المنزل، كانوا يودعون بعضهم بعضًا بالعبارة التالية: «فلتنتبه على نفسكِ» مصحوبة بنظرات أعين مقبضة ضد كل الأخطار. يتعرف الأطفال على السيدة «إحتراس» بوصفها أول شخص ذا صلة، ومن بعدها كل أقاربها الخوَّافين. ورغم ذلك كانوا يموتون باستمرار رغم كل هذه التحصينات.

قالت مارا:

- «من الأفضل أن يضعوا المواليد الجدد في النعش من البداية، ويفتحون غطاءه حتى يحين الأجل فيغلقونه.»

كانت المقارنة تتعلق ببطنها التي بدأت تتقوس. وهنا كان التفكير الاستراتيجي هو: «هنا حيث أجلس سأبقَى. لماذا أُبدِّل مكاني الدافئ هذا مقابل مكان آخر في مواجهة تيار الهواء؟» إذا استقر الجنين، وعشش في رحم الأم، لا ينبغي طرده من هناك. لذا كان الإجهاض محظورًا. إذ أن القانون يُعاقِب على كل نوع من المخالفات تجاه بطن الإنسان. فالعمل الذي بدأ يجب إتمامه، بغض النظر عما إذا كانت مارا في وسط الطريق فقدت الرغبة. والجنين بدوره يُعد شريكًا تجاريًّا، تم إبرام تعاقد معه. لطالما كانت العقود تُخرق عندنا، وما أكثر الأجنة التي لم تكمل مسارها. وعندما رجت مارا طبيبة أمراض النساء، بل وألحت عليها؛ كي تفسخ هذا العقد، أمرتها الطبية قائلة:

- «فلتنجبي الطفل أولًا ثم اعرضيه للتبني.»

من حسن الحظ أن هناك إمكانية السفر للخارج. وهناك كان مسموح بإنهاء الأعمال قبل موعدها.

سأل المعالج النفسي للأطفال قائلًا:

- «لماذا تعتقدين أن ابنكَ لا يتحدث حتى الآن؟»

فسرَّ الأب الأمر بقوله:

- «لأنه خجول.»

وحكَى الأب أن ابنه عندما يفتح باب المطبخ كل صباح، يتقدم نحو مائدة الإفطار بخطوات مترددة دون أن ينظر إلى والديه.

ويشعر باغتراب شديد بين مَنْ لا يعرفهم. كما أن الطفل ذا الثلاثة أعوام لا ينطق سِوَى ثلاث كلمات: «ماما، بابا، لا.»

أومأت الأم، وابتسمت، وهي مطرقة النظر إلى أسفل، بينما كانت تهمس إلى زوجها بكلمة أو اثنتين من حين لآخر. وهو بدوره كان يحك يديه الكبيرتين والخشنتين ببعضهما، إذ يتسبب له الأمر برمته في إحراج شديد. ولكن هذا الحديث لا بُدَّ منه. إن خرس الابن مسألة جادة. لقد جاءوا إلى هنا يحملون فكرة الخجل الشديد الذي يخنق اللغة، تلك الفكرة التي ترسخت بداخلهم طوال أشهر مثل التعويذة السحرية. وقد حرصت الأسرة التي تتكون من أربعة أفراد على عدم لفت الأنظار إليهم، كما لو أن هناك جين الخجل. الملابس لونها بني فاتح، والمشية أشبه بالتسلل، الملامح بلا تعبير. العبارات القصيرة التي أصدرها الوالدان لم تتجاوز التحذيرات الموجهة للطفلين بصوت منخفض؛ لكي لا يبتعدا عنهما، أو يلمسا أي شيء.

- «هل يستطيع ابنكما أن يرتدي ملابسه، ويربط حذاءه بنفسه؟»

- «لا نعرف، فنحن اللذان نضع له ملابسه.»

التفت الطبيب إلى الصبي وقال:

- «أين ركبتاكَ؟ أين مرفقكَ؟»

اندهش الوالدان لكون الإنسان له جسد ولغة تعبِّر عنه. بل إنهما

شعرا بالخزي. لكن الصبي متمكن من شيء بعينه: فهو يستطيع التقاط الكرة وقذفها مرة أخرَى بعزم شديد. مسحة من السعادة والقوة تملكت من جسد الصبي الصغير. نعم، لديه جسد.

كانت الابنة ذات العامين تراقب الأمور غير المعتادة التي تدور حولها. كانت تجلس إلى جانب أبيها شاحبة ومتيبسة. هي أيضًا لا تتحدث سِوَى بالكلمات الثلاث مثل أخيها.

«ستتحدث ابنتي». قالها الأب كما لو أن الكلام سينهمر ذات يوم مثل البَرَد. ولكنه سُرعان ما عاود الارتداد ثانية إلى خجله الوجودي الهائل.

- «يجلس الصبي طوال اليوم أمام جهاز الكمبيوتر، وأخته تحاكيه تمامًا.»

قال الطبيب: «لكن هذا يسبب أضرارًا.»

الحرب تسبب الأضرار، عدم الطاعة يسبب أضرارًا. أخذ الأب يقدح زناد فكره غير المتمرس. لم تعلن أي جهة عُليا أن ألعاب الكمبيوتر تضر الأطفال الصغار لغويًّا؛ لذا فهي ممنوعة.

بل إنه برر ذلك قائلًا: «يبكي الأطفال عندما نمنعهم من هذه الألعاب.»

تبتلع المملكة الافتراضية الجسد بما في ذلك اللغة التي لم تُولَد بعد. الجسد واللغة اثنان من الأحبة يتعرضان للاغتيال يوميًّا.

عندما خرجنا إلى الشارع أمسكت بيد الصبي الصغير، وأخذنا نضرب الأرض بأقدامنا ونحن نركض. وصاح الأب يطالب الطفل بألا يُجهد نفسه. إلا أن الطفل ظل يركض معي، ويسقط، ويعاود النهوض دون أن يشكو أو يتذمر. لقد انتزع نفسه من الماضي، ولم يعد يشعر بالاغتراب تجاهه، بعد ما أصبح يُحركه صوب مستقبله المتحرك. ها هو يتعثر مرة أخرَى وينهض. فتسقط من خارج فمه كلمة أشبه بقطعة تفاح كانت عالقة في حلق الفتاة بياض الثلج في الأسطورة، كلمة صحيحة من ثلاثة مقاطع صوتية. كلمة تلد العالَم. ذات يوم سيعود الصبي المتحدث من مستقبله البعيد إلى الماضي، ويهدي والديه كلمات وكذا أوراق العملة المُتحصل عليها بعد جهد شاق حتى يتمكنا من بناء بيت.

يا لها من نهاية سعيدة مُتعجلَة كثيرًا. في موعد الاستشارة التالي أخبرهم الطبيب بتشخيصه للمرض كالتالي:

- «يعاني مركز معالجة الأصوات في المخ لدَى الصبي والمسؤول عن تحويلها إلى لغة من عيب خِلْقِي.»

وأفاد الطبيب بأن الطفل ربما يتمكن من بناء بيت لغة متواضع خاص به إذا حصل على تشجيع مبكر.

انفجروا جميعًا في الضحك فجأة، فانتابني الفزع. كانوا يضحكون من أعماقهم لسماع نكات بسيطة، وسطحية، وبريئة تمامًا مثل زهرة اللؤلئِيَّة الصغيرة. كل شيء له ثمن، إلا أن الضحك الذي كان يتعين علينا استخلاصه بصعوبة في ظل الديكتاتورية، كان هنا مجاني. وبينما كانوا هم يسترخون كانت عضلات وجهي تتوتر، إذ كانت متمرسة على ألا يرخيها سِوَى الانجرافات الهاوية. عندما كان الأمر يتعلق بالنكات، فقد كانوا مهملين جنائيًّا، إذ إنهم لا يصقلونها، ولا يمنحونها شكلًا صارمًا أو جملة مميزة. فالنكتة يجب أن تكون متاحة لجميع الطبقات وصادقة بشفافية، وليس بها مواربة أو ازدواجية في المعنَى، إذ إن ذلك قد ينمُّ عن تفكير شرير. كل شيء له وقته المناسب. وكما يقولون إذا وضعنا الجد في الوعاء يبقَى الهذل في العقول، أي أنه لا مكان للنكات وقت الجد. وإذا تجاسر أحد، وسرَّب نكتة إلى نطاق الجديَّة لكان ذلك يُعدُّ بمثابة ضربة مُوجَّهة للديمقراطية. النكات محلها أوقات الفراغ، ولا ينبغي أن تكون مرهقة. لماذا بذل الجهد عند سماع النكات؟ فهل نتحصل على المال نظير ذلك؟ إلا أن الرجال فقط هم مَنْ يحق لهم أن يكونوا مضحكين. فالنساء كُنَّ مسؤولات عن الدفء والراحة في البيت، هنا تتوقف الدعابة. فالنساء يحافظن على سمعتهن بأنهن عمليات. وإذا شرعن في إطلاق النكات ربما يحترق اللحم. عندما تنتهي يد الزوجة من ترتيب البيت، وتنظيفه، وتشبع بطن الزوج، يبدأ الأخير في جرعة الفلسفة، وعلى سبيل

الحلو بعد الطعام تأتي فقرة النكات.

كان هناك بعض المستقلين الذين لا يقبلون الاعتماد على نكات الآخرين. وكانوا يضحكون مثل صهيل الجياد على عباراتهم الخاصة، حتى وإن افتقرت إلى أي مسحة من خفة الظل. كان الإجبار الحزين على الضحك يختفي عندما أخبرهم عن الأهوال والفظائع. لم يفعل المؤدي الكوميدي المحبوب شيئًا سِوَى التحدث بالطريقة المعتادة. فهو لا يبالغ، كما أنه من البداية كان ودودًا، ومحبوبًا، والأهم أنه لا يشكل أي خطر على الجمهور مطلقًا، أي أنهم مساءً كانوا يضحكون أمام التلفاز على عدم إلحاق الضرر بهم. هذا الممثل الكوميدي الخاص بهم للغاية، والذي كان يسدد الضرائب عن حفلات أدائه، كان مسموح له بالسخرية منهم.

في كل عام كانوا يُشيِّدون خشبة مسرح على ضفة النهر، ليأتي الممثلون الكوميديون المحليون لإلقاء النكات القديمة، ويحصلوا على الجوائز نظير ذلك.

مما أثار حنقي فقلت: «أين النساء في هذا البلد؟»

فطالبتني مارا قائلة: «أنتِ واحدة منهن، هيَّا.»

فصعدتُ إلى خشبة المسرح، ورددتُ وأنا متخوفة قصيدة ثورية، لتتردد هنا على ضفة النهر لغة لم يستمع إليها أحد من قبل أبدًا. نسي جمهور الحاضرين أن يضحكوا، بل ساد الصمت قبل أن يصل إلى المسامع تصفيق الاستحسان. حصلتُ يومها على

جائزة المركز الثاني. وهكذا تمكنتُ من اكتساب التقدير والاعتراف الجماهيري، بوصفي مؤدية كوميدية. لقد حان وقت الأجانب لتولي دور التسلية والترفيه. وإذا بالأمور المميزة والخاصة تلقَى ترحابًا، وأصبح إغفال القواعد مسموحًا - ولكن فضلًا- على خشبة المسرح فقط.

كان الأغراب يحلقون في دوائر على الأطراف الباردة، وينفصلون بسهولة مرة أخرَى، ثم يحومون لفترة من الوقت بحثًا عن أطراف أخرَى، ليغادورها هي أيضًا. لم يتمكنوا من التغلغل إلى المنتصف المحمي، ومَنْ ذا الذي يرغب في ذلك مع التكلفة العالية التي يتطلبها الأمر؟ بلى كان هناك بعض هؤلاء المستهترين. كانوا ينتقون عادات وطقوس من الفولكلور المحلي؛ ليعلنوا أنها مُهددة، ويُنصِّبوا أنفسهم مدافعين عنها. وكانوا يذكرون أن النشيد الوطني من شأنه أن يُوحِّد البلاد؛ لذا يتعين أن تتعالَى نغماته قبل كل فعالية عامة، وصباح كل يوم في حضانة الأطفال قبل لعبة البقرة العمياء. أي أنهم كانوا يحذرون السكان المحليين؛ كي يتمسكوا بثوابتهم العنيدة ويقولون: «نحن نعرف كيف نحمي ديمقراطيتكم أفضل منكم؛ لأننا عهدنا الدكتاتورية، فلا تجازفوا بهذه السلعة الغالية، ولتلفظوا الأجانب الأشرار خارج البلاد، واحتفظوا بنا نحن فقط الأغراب الطيبيين.» هذا ما كانوا يرددونه في التجمعات، وهم يحاولون استخدام اللهجات الدَّارِجة، ويرتدون الزي الرسمي للبلاد، فهم لم يفلتوا من دور المهرجين، بل سقطوا فيه، وغرقوا حتى قمة رأسهم.

تجلس في غرفة انتظار عيادة الطب الباطني سيدة يُعبِّر لسانها بوضوح عما يحمله قلبها؛ إنها شؤون القلب المُلحَّمة. إذ تذبح خنزيرًا في قريتها شهرًا بعد الآخر، ثم تُجمِّده، وتسافر به طوال يوم بليلة حتى تصل إلى هنا. ثم تتناول الخنزير مع زوجها الجديد. لن ترث المنزل ولا الأرض، فأبناؤه وأحفاده في انتظار الاثنين، لكن شيئًا ما سيظهر من أجلها، هذا ما تخبرني به، وتواصل قصتها: لا، لا تحتاج إلى اللغة للتواصل مع الرجل العجوز، فهي تعتني به فقط، وتنجز الأعمال المنزلية. ليس لديها مزيد من القصص عن الحياة في الغربة، فعلى النقيض من ذلك، تُوفِّر العائلة التي تركتها خلفها مادة للأخبار الشعبية المثيرة. لغتها مثل الخنزير، مُشبَّعة بالدهون.

اكتشف ابنها، هذا الذي لا نفع منه، والدَه العاطل عن العمل، ابن الحرام، وقت الظهيرة في الفراش مع امرأة ساقطة. بعد ذلك ضرب الأب، الذي كان في حالة سُكر تام، الابنة، تلك العاهرة، التي حملت سِفاحًا من علاقة مع شخص من أرباب سوابق، ذاك الشهواني، مما يستوجب تزويجها بسرعة. كل هذا يُكلِّف نقودًا ستساهم بها بالتأكيد ماما، هذه الحمارة. فعائلة الذئاب تلك لا ترحب بماما إلا إن كانت مصنوعة من نقود، حيث تستقل الحافلة هنا وحقائبها معبأة بالكامل.

تتنهد قائلة: «هكذا هو الحال.»

إلا أنها تتفاخر بكونها ليست حمقاء، فهي تُملِّح هداياها بشتائم وفيرة، وزوجها السابق يخاف منها؛ لأنها يمكن أن تُصبح عنيفة في واقع الأمر، كما يجب من ناحية أخرَى مكافأة القسيس بشكل متحضِّر؛ لأن التعميد أصبح وشيكًا. لديها أيضًا رأي سياسي:

- «قاد الساسة، هؤلاء الحمقَى، بلدنا إلى الهلاك.»

كدحت في قريتها عندما عملت في وظيفة مساعدة خبَّاز، إذ كان يتوجب عليها الاستيقاظ في الظلام، ثم أصابتها حساسية ضد الطحين، فراحت تعطس على منتجات المخبز اللعينة.

شكَّلت نصيحةُ صديقة لها نقطة التحوُّل:

- «فلتسافري مثلي إلى الخارج بوصفكِ جليسة للمسنين.»

تحكي أنها بناء على ذلك، لم تعد تمارس الجنس في الغربة، وحين قالت لصديقتها إنها لم تعُد تعرف كيف يبدو العضو الذكري، دعتها هذه الصديقة للزيارة قائلة:

- «تعالي إلى دار الرعاية. بإمكانكِ رؤيته هنا دون مخاطر.»

أصدرت مديرة خدمة الترجمة الفورية توجيهات متعلقة بدرجة الاقتراب، فوفقًا لها لا يتناسب القرب مع مهنتنا، إذ ستكون الحيادية مُعرَّضة للخطر. لا يُسمح لنا بمعرفة العملاء، ولا بتجاذب أطراف الحديث معهم في غرفة الانتظار. لا أتَّبع هذه القاعدة، إلا أن زميلة لي يكتسي وجهها منذ ذلك الحين بتعابير جامدة؛ كي تمنع أبناء بلدها من سؤالها عن عدد أبنائها، لكنها

تُعاني من هذا الأمر، وتشعر أنها خائنة؛ لذلك نصحتها بأن ترد الأسئلة عن عدد الأبناء إلى الفضوليين. من المحتمل ألا ينتبه المعظم إلى هذا الأمر، فهُم يُحصون أبناءهم فقط على كل حال.

ترفرف في الصباح الباكر رائحة الكحول في هواء المستشفى المُعقَّم، وترتجف الأيدي، وتظهر حُمرة الفجر على وجنتي المريضة.

«مرض»، تتمتم بها الطبيبة، وتسأل المريضة عن كمية الكحول اليومية.

- «أوه، فقط عندما يأتي الضيوف، كأس من كوكتيل الفودكا مع عصير البرتقال، كأس من النبيذ الأحمر المُخفَّف بالماء، كأسان صغيران أو ثلاثة من الخمر، ولا جرام واحد أكثر من هذا.»

«لكن حالة كبدكِ سيئة. تشير صورة الدم إلى أن معدل استهلاك الكحول هائل حتمًا.»

هناك مسحة من الانفعال في نبرة صوت المريضة، وكأنها تتحدث مع عائلة الخنازير الوضيعة خاصتها:

- «ألا تحتسين أي خمر عندما تستقبلين ضيوفًا؟»

ثم توجَّهت إليَّ آملة أنني أعرف كيف أَتَّبِع قواعد الكياسة الصارمة.

تستفسر منها الطبيبة قائلة:

- «هل تعثرتي وسقطتي مَغشيًا عليكِ مرة أخرَى؟»

أجل، يستمر هذا المصير القبيح الغامض في حصد حياتها، حدث هذا ذات مرة، على نحو غير متوقع، أمام مطعم ما، ولم تستيقظ إلا في غرفة الطوارئ.

- «ومؤخرًا كنتُ أقف في المطبخ أمام وعاء الحساء الذي يتصاعد منه البخار، وفجأة وجدتُ نفسي مستلقية على الأرض بعانة محروقة.»

أشعر بالخجل من ابنة بلدي، وأترجم ما قالته إليَّ:

- «بمِهبَل محروق.»

يكمن جوهر مهنة الترجمة الفورية في محو ذات المترجم، إذ تتحقق الحالة المثالية إذا توقف المتحدثون عن ملاحظة وجود شخص يترجم لهم. إذا نجحتُ في الاختفاء بهذه الطريقة، أصمد فوق سير اللغة الناقل، وأرغب بعد انتهاء المناوبة في الظهور بكامل حجمي، وفي إظهار ما لدي من حكمة وعاطفة.

أخذتُ على الطبيبة أنها تتعامل بمرونة مفرِطة مع المريض، وتدعمه في تقمصه لدور الضحية خاصته.

أتدخل في عمل الطبيب النفسي قائلة:

- «هل لاحظت أن المريضة لديها حس دعابة؟ ربما بإمكانك

الاستفادة من مصدر القوة هذا.»

لا، لا يرغب الطبيب النفسي، المُجرَّد من أي روح دعابة، في أي تعليق. لكن ثورتي لم تنتهِ بعد:

- «يوافق أهل هذه الدولة على بقاء الأجانب فوق سرير المشفَى فقط، لكن إن أصبحوا واثقين من أنفسهم، فالويل لهم.»

طرح حصانُ اللغة الخيَّالَ أرضًا، وها هو ذا يتلعثم في سقوطه الحر بينما يحاول إعادتي إلى الصراط المستقيم، ويقترح للموعد القادم يوم الخميس بعد الظهر، لكنني رحلتُ بالفعل وانطلق عُرْف الفرس راكضًا عبر البلاد. يظهر الشعورُ بالذنب بعد ذلك. فأنا غير قادرة على الخضوع للسلطات.

حذَّرتني مديرة خدمة الترجمة الفورية قائلة:

- «لا ينبغي مزاولة هذه المهنة لأحيان كثيرة، وإلا أصابت مَنْ يزاولها بالمرض.»

إذا اشتكى السكان المحليون من أنهم لا نقود لديهم، كنتُ أقدم لهم عملاتي المعدنية. لكن ما قصدوه كان أنهم لا يمتكلونها نقدًا وحسب، وأنهم لا يرغبون في مس حسابات الادخار الخاصة بهم. كان من غير اللائق أن تكون مفلسًا، وأن تستغل الصداقة لاقتراض النقود. إلا أن بنك الكانتون كان الصديق الأفضل. فبفضل السرية المصرفية لم تعرف الزوجة كم كان رب أسرتها يجني من نقود. نشرت حكومة الكانتون توصيات لكل الأسر توضِّح فيها مدى ارتفاع المبلغ المُحدَّد لمصروف جيب طفل في العاشرة من عمره، ومدى انخفاض المبلغ المُحدَّد للزوجة كمصروف بيت. فبعد العشاء الجماعي في السادسة مساء كان كل من الأطفال في سن العاشرة والزوجات يقدمون كشف حساب بالنفقات. وإذا أبدى ربُّ الأسرة تفهمًا تجاه التبذير، يُسمح لربة المنزل بفعل ما تشاء في سوبر ماركت «ميركلي».

لم يكتفِ الناس بالاعتقاد أنهم قادرون على التحكم في مصيرهم وحسب، وإنما هيأوا أيضًا الظروف المواتية لذلك. فمهَّد حسابُ ادخار الشباب الطريق للمولود الجديد؛ كي ينخرط في المجتمع. كان الادخار لأجيال قد أتي ثماره. فالأحفاد لم يكن بهم حاجة للانتقال من مكان لآخر من أجل توفير كل طبق من أطباق لحم الكبد والبطاطس المشوية. وكانوا يجلسون في وقت فراغهم على الكرسي المصنوع من الجلد، بينما يتصفحون سريعًا كُتب الفلسفة

الأجنبية، ويقومون برحلات تعليمية، وينغمسون في الملذات المتحضِّرَة.

المطعم باهظ التكلفة مكان آمن لخوض تجارب مثيرة. فهناك كان الناس يحصلون على معلومات موثوقة، ويحجزون طاولة في الوقت المناسب، ويدفعون الطعام إلى أفواههم جيئة وذهابًا بينما تملؤهم الإثارة. كانوا يكشفون حينها فقط عن نطاق كامل من الانفعالات البشرية. فيسقطون وسط سيل من أسماء التفضيل عن جودة المَرَق، ويمرُّ أمامهم بينما يمضغون طعامهم استعراض من الوجبات العائلية، ووجبات العمل الماضية. فيقارنون الجودة والأسعار، والأطباق الجانبية والنبيذ، والخدمة والأجواء. إنهم موجودون داخل مكان يقع خارج نطاق القانون، حيث يُسمَح بفقدان الأعصاب على مفرش الطاولة الأبيض المُنشَّى. ففي نهاية الأمر لم يكن النبيذ باردًا بما يكفي. تملؤهم هنا الثقة بالنفس عن آخرهم. إذ كانوا يعرفون على وجه التحديد ما الذي يتوقعون الحصول عليه مقابل أموالهم، ويصنِّفون الإكرامية حسب درجة خنوع الموظفين. كان يحق للمواطنين الأحرار الحصول على نطاق عريض من الطعام الفاخر. «جربي هذا أو ذاك، ما رأيكِ؟»، أُدرِجتُ على هذا النحو في لعبة الديمقراطية المقرمشة، لكنني ظللتُ شخصًا غير مؤهَّل ديمقراطيًّا، يأكل البطاطس دون زيتون، ويشربُ ماء الصنبور.

ثم حصلتُ على وظيفة نادلة، ورُحتُ أخدم العملاء دون مهارة

بتعابير وجه كئيبة. فدسَّ لي رجل أعمال شاب ورقةً نقدية كبيرة ذات مساء.

صددته قائلة:

- «لا أستحق ذلك، فأنا لا أُحسِن العمل في الخدمة على الإطلاق بعد كل شيء.»

- «لهذا السبب تحديدًا أعطيكِ النقود. اكتفيتُ من هذا السلوك البارد.»

لم أمعِن التفكير فيما إن كان قد أهانني، وإنما قبلتُ المكافأة غير المستحقَّة.

وهكذا بدأت الخدمات هنا في التدهور.

إذا تفاخر شخص ما، فهو أجنبي حتمًا. حينها تعمل الدولة على تهدئته على نحو مطمئن بيديها الاثنتين بينما تقول: «تعال إلى الأسفل». فقط لا تُحلِّق، وإنما ابقَ على الأرض. الشخص المستضعَف موضع احترام، لكن المتفاخر كان مثيرًا للشك، ولا يمكن ائتمانه على بيع طوابع البريد. الشخص الذي كان واثقًا من نفسه بشكل مبالغ فيه، كان يعيش وحيدًا هنا، دون أي طوابع بريد. متبجِّح ومهووس خطير بنفسه. نوع غير مناسب للديمقراطية. عمِلت الدول الأخرَى على تنمية عنصر الجاذبية، لكن لا يمكنك تخزين الجاذبية، فأنت تضيعها مع كل محادثة. وما الذي تجنيه من ذلك؟ لا شيء سِوَى نُفايات عاطفية منبعِجَة

دون خدمة جمع نُفايات فعَّالة. سادت هنا، من ناحية أخرَى، مهارة الحفاظ على كل الأشياء غير الساحرة. فأداء العمل كانت له الأولوية على الجاذبية.

تعرَّض مثل هؤلاء الأجانب إلى كراهية فاقت تلك التي تعرَّض لها الأشخاص المحجمون عن العمل؛ فقد تحدثوا بطريقة زلِقة ومطلِعة، وكانوا سريعي الاستيعاب، وتمتعوا بالإبداع والدقة في آن واحد، واتسموا بصفاقة شديدة جعلتهم لا يخفون كل ذلك، ويشغلون الوظائف العُليا. اكتشفتُ وراء القناع الطارد شعورًا بالنقص. كان القناع يُدعَى شرنقة، شرنقة ضعيفة في مرحلة التطور.

على أي حال، كانت الفتيات الأجنبيات محبوبات – وتحديدًا المسكينات، اللائي كنَّ كبيرات في السن، وأنثويات، ومريضات. إذ كنا نتنازل لهن عن مقاعدنا في الترام، ونلتقط الرابن[1] لهن. وذات مرة، كانت مارا جسورة بما يكفي كي تفتح بابًا عندما سمعت وراءه أنينًا خافتًا. فوجدتْ جارتها المنهارة مستلقية هناك، واتصلتْ بالإسعاف. كانت مارا قد نسيتْ عملها الصالح بالفعل، لكن لا شيء يضيع هنا. إذ راحت المرأة المنبعثة من الموت تُهدي مارا النقود والشيكولاتة عيد فصح بعد الآخر.

1- عملة معدنية.

يتدلَّى في دَرَج العيادة الخارجية للأمراض النفسية عملٌ فني: شِباك قطنية بيضاء متشابكة وكبيرة، تلتف حول الدرابزين على ارتفاع خمسة طوابق. فأرتقي الدَّرَج بينما أفكر في الاستعارة الجميلة: نحن نلتقطكم.

تنتحب امرأة في غرفة بلا نوافذ، وتؤكد أنها لا ترغب في البكاء على الإطلاق. ثم تنظر للطبيب النفسي نظرات اتهام، وكأنه السبب في ذلك. فيردُّ قائلًا:

- «لا يمكنكِ التحكم في الأمر.»

- «لكن لماذا؟ لماذا يصيبني الدوار أمام أرفف السوبر ماركت المتلئة؟ لماذا يؤلمني ضجيج عربات الترام والأصوات العالية بشدة؟»

الطبيب النفسي الشاب أجنبي ثنائي أو ثلاثي تتكون لكنته المثقَلَة من عدة لغات. ومن المجهِد تقشير لكنته من على الكلمات، كي تصبح قابلة للفهم. فالمشفَى ورشة كبيرة تضم فريقًا عالميًّا من الحرفيين. إذ يجري إصلاح عظمة هنا، وتقويم فكرة ملتوية هناك.

- «هل يبدو لكِ كل شيء غير حقيقي عندما تنتابكِ هذه الحالات؟»

تصيح المريضة:

- «إنه حقيقي أيُّها الطبيب. صدقني!»

أنجح في رؤية الفكاهة وسط يأسها. وهكذا يكون من السهل عليَّ التحرر من تعاسة الآخرين. فأترجم شفهيًا باستمتاع، وألخِّص جُمَل المريضة الصاخبة، وأصبح سفيرة البيان.

- «هل تراودكِ فِكَر انتحارية؟»، يسألها الطبيب النفسي بصورة عابرة، وكأنه يسأل عن نزلة برد.

- «لكنكَ لن تحبسني؟»

- «لا، لا.»

الطبيب النفسي مُشاهِدٌ للهاة مأساوية، يبدو مستمتعًا حينًا، ومتجهمًا حينًا آخر. لكن هذا ليس مسرحًا. إنه عمل على حلِّ الالتباس. ربما يضحك في داخله على حالات الجنون، ثم يحكي لزوجته عنها مساء في ملل: «أوه، عاينتُ اليوم مرة أخرَى مريضة مصابة بالهلع»، ثم يُقلِّب ويتنقل بين محطات التلفاز.

تتذكر المريضة نقطة قوتها السابقة:

- «كنتُ أعمل في وظيفة ميكانيكي سيارات في موطني. أحب رائحة البنزين.»

تتسع عينا الطبيب النفسي ويقول:

- «ماذا؟ كنتِ ميكانيكي سيارات؟»

- «نعم بالطبع. لطالما ذهبتُ في رحلات بسيارتي الهوندا في

عطلات نهاية الأسبوع، وفزتُ بالسباقات. لكن منذ أن سقطتُ على أذني، أصبح الصفير والدوي يصيباني بالجنون، هوهوهوهو. فأنسَى كل شيء بالفعل. لماذا أنسَى كل شيء؟»

- «تمتص المخاوفُ طاقتك، هذا هو السبب.»

- «أخبرني أيُّها الطبيب، هل أنا مريضة نفسيًّا، أم أن طنين الأذن هو ما يفعل بي هذا؟»

- «طنين الأذن كان المُسبب، ثم طوَّرت المخاوف زخمًا خاصًا بها. كل منهما يرتبط بالآخر.»

يشبك أصابعه ببعضها ثم ينهض.

- «لنأخذ استراحة الآن، ثم نسحب عينة الدم.»

- «نسيتُ إخبارَكَ أنني تزوجتُ.»

- «تهانينا.»

- «يقول إنه يحبني. سأنتقل لأعيش معه في الريف. لا يوجد ترام هناك. ربما يساعد ذلك على علاج الدوار.»

- «آه، بالتأكيد.»

الآن تُقبلُ المريضة عليَّ، وتُبقِي وجهها الملطخ بالدموع على مقربة من أنفي، وتنوح بشدة بالغة، وكأنها تحكي عن سرقة، وتعذيب، وقتل. كان الأمر بالفعل سرقة، وتعذيبًا، وقتلًا. فالجاني الوحشي غير المرئي يستطيع أن يمارس أذاه من جديد في أي وقت،

فلا يسمح لها بالخروج من البيت، ويقنعها أنها مجنونة. لكن لا أحد يهرع لتقديم المساعدة. عالَم شرير.

أهبط الدَّرَج مسرعة. لا، الشِّباك البيضاء ليست عملًا فنيًّا. إنها شِباك حقيقة. شِباك أمان لالتقاط المنتحرين.

إذا أرادت الجارة أن تقترض مني فرشاة التنظيف، تستهل تصرفها الجسور بجملة «من فضلك» مذعِنة، وتنهيه بمتتالية مكونة من «شكرًا بالفرنسية أولًا ثم الألمانية».حين قالت «فضلًا شكرًا»، جرحتني على نحو بالغ، وكأنني غير قادرة على تقديم ما يريده القلب – هذا بغض النظر عن أنني لم أمتلك جهاز تنظيف. لا، لم تأتِ مطلقًا كي تقترض مني شيئًا. هذا ما تمنيته وحسب. إذ كيف يمكنها أن تعترف بأنها ربة منزل ضيَّعت فرشاتها.

دوَّت «فضلًا شكرًا» في جميع الأنحاء. وأحزنتني لأنها كانت مثل لوح قائم بيننا. إذا وقفنا مجتمعين على مقربة من بعضنا، لن تستطيع أي عبارة جوفاء أن تقحم نفسها بيننا. فهي لا تنتشر إلا في ذلك الخواء الرسمي. إلى أين هاجر الامتنان؟ لقد تفوَّق عليه شبيهه الشاحب. حتى الرُّضَّع كانوا يتعرضون لسوء المعاملة بأسلوب راقٍ: «من فضلك، اهدأ!». كانت عبارة «شكرًا» بمثابة فرشاة التنظيف التي طمست الخير والشر. فحتى العدو صار من المشمولين ضمن نطاق هذه الصيغة السحرية التي تبدو مُعزِّزَة للسلام. وأُرسِل ما هو غير مرغوب إلى الشيطان كتابةً، بأسف بالغ وباحترام وافر.

عاني كثير من الأشخاص من هوس التحية، فكانوا يلقون التحية أينما ذهبوا، سواء في الساونا أو بين الشجيرات المنخفضة. لم تكن كلمة «مرحبًا» الحجر الأول الذي أطلق عنان الانهيار الجليدي.

ولم تكن هوسًا بالقرب. فإذا تجرأ أحدهم وردَّ عليها بكلمة مرحة من جانبه، لكانت كلمته مثل شخص صدَّ الباب بقدمه. لأن كلمة «مرحبًا» لم تكن سِوَى لافتة «ممنوع الإزعاج!» المعلَّقَة على الباب. كنتُ أميَّة واستغرقتُ أعوامًا؛ كي أتعلم قراءة هاتين الكلمتين. كانت هاتان الكلمتان المفتاح إلى بلدي المضيف. مفتاح لم يكن في المقدور فتح أي قفل به.

لم يعرف السكان المحليون أن الحياة معركة، فكانوا ينتظرون مواطنة وديعة تُتمتم دون توقف بعبارات الاعتذار عند سماع تحذيراتهم الدائمة. إذا مسُّوا شخصًا دون قصد، يسارعون للاعتذار. فاكتشفتُ في الاعتذار وحده بذرة الشغف. أتراهم لهذا السبب يعتذرون غالبًا وبسرور بالغ؟ كانت الاعتذارات بمثابة مُنعِّم الأقمشة الذي يُفترَض به منح النعومة للعلاقات الإنسانية. فالشخص الذي يتخذ إجراءات وقائية، ويقول: «مرحبًا، واعذرني من فضلك»، يمضي في حياته على النحو الأفضل.

بدلًا من جملة: «أغلِق النافذة»، كانوا يقولون: «معذرة، هل لديكَ مانع، وهلَّا كنتَ في غاية الكرم، وتفضَّلتَ بعد إذنك وأغلقتَ النافذة؟ هذا لطف بالغ من جانبكَ، شكرًا جزيلًا. أتمنَى لكَ عطلة نهاية أسبوع رائعة بحق.» لم يكن كافيًا أن تتحمل هذا السيل المزعِج، فمن اللائق أن ترد عليه قائلًا: «شكرًا، وأنتَ أيضًا». كل شذوذ عن ذلك كان يمنحني صفة الطفلة المزعجة، ويثير غضب الأشخاص المهذَّبين تجاهي.

يا لهذا الترف السائد هنا! يستخدم الناس لغة متملِّقة مليئة بالصيغة المشروطة من أجل قضاء المتطلبات اليومية. في موطني، اعتدنا على سحب المجال الشخصي على نحو غير لائق إلى المجال العام، أما هنا فالجانب الرسمي كان يكبت الجانب الخاص. مع ذلك، فقد أنهكوا أنفسهم باستخدام الصيغة المشروطة لدرجة أنه في وقت ما لم يتبقَ مزيد من الصيغ الشرطية، ولا مزيد من الطاقة اللازمة من أجل المتطلبات الأهم. إذا تجرأتُ واعتبرتُ نفسي شخصًا أكثر سموًا، وصحتُ في تلقائية: «أغلقها»، لذكَّرتُ المواطنين بالأمر: «أطلق النار!». إذ كان الجيش ما يزال متسمًا بالأصالة، ولم يمسه التلوث باللغة الدبلوماسية.

نرتدي عند البوابة المزدوجة معاطف بلاستيكية صفراء وقفازات مطاطية. ويضغط الطبيب المشرف كمامة خاصة مزودة بمُرشِّح على وجهي بإحكام. ثم ندخل غرفة المريض التي يُنقَّى الهواء فيها على مدار الساعة. ويُصاب رغم ذلك بضع عاملين بالعدوَى سنويًّا. نظل واقفين على مسافة كبيرة من رجل ضئيل ونحيف. هذا هو إذن الوحش الخطير الذي وُضِع في القفص حفاظًا على سلامتنا. جعله الحبسُ الانفرادي في غاية الخنوع. وصل إلى مخيم العبور قبل أسبوع. وكان بعض السجناء السابقين في دولته قد أصابوه بعدوَى مرض السل المفتوح.

- «كيف تشعر؟»، يسأله الطبيب المشرف.

- «بخير. توقفتُ عن التدخين، وأصبح السعال والتعرُّق أقل.»

- «سنبدأ العلاج اليوم. لكن جراثيم السل مقاوِمة، ولا يمكن التغلب عليها بسهولة كبيرة.»

- «هل لدي ثقوب في الرئة؟»

- «ثقوب، يمكنك أن تسميها كذلك. أنتَ مصاب أيضًا بالتهاب الكبد الفيروسي من نوع C. ينتقل هذا بسبب حقنة ملوَّثة. لم يكن هذا الأمر ليحدث في مشفانا.»

- «أعرف. في بلدي كل شيء وارد الحدوث.»

لم يهرب الرجل من الحرب، ولم يكن ناشطًا سياسيًّا. لم يختلق أي قصة عن كونه مُطارَد ولم يشكُ. ولماذا يفعل ذلك حتى؟ لقد وصل إلى المكان الصحيح. هذه الغرفة الخاوية هي أرض الميعاد. ومن هنا إما أن يموت أو ينطلق نحو المستقبل.

يشير إلى القاموس المفتوح على الطاولة الصغيرة بجوار السرير، ويقول أهم كلمة في اللغة الأجنبية:

- «شكرًا.»

- «أنتَ في أيد أمينة هنا. أتمنَى لكَ الشفاء العاجل»

أقولها للرجل في صيغة أمنية بينما أودعه.

يتمتم الطبيب عند البوابة المزدوجة بينما يخلع الكمامة قائلًا:

- «يعرف أنه سيموت لو لم يُعالَج. فلنأمل ألا يتم ترحيله في منتصف العلاج، وإلا أصبح حينها كل شيء دون جدوَى.»

- «كيف يمكن أن يحدث هذا، بينما يمثل الرجل خطرًا مميتًا على البيئة؟»

- «أنتِ محقة. لا يمكن نقله إلا بعد أن نجعل الجراثيم غير مؤذية إلى حد ما. لكن ربما لا تستجيب للأدوية.»

أتخيل في الطريق إلى البيت كيف أُترجم شفهيًّا من وراء الكمامة للرجل البائس الكلمات الأخيرة على فراش الموت. لكن إن حدث الاختيار الآخر، سيكون على الأرجح أسعد لاجئ يتم ترحيله.

أتجوَّل بحكم عملي في خدمة الطوارئ اللغوية بين اللغات كما لو كنتُ أطوف في أزقة متعرِّجة، فألمس هذه الذراع أو تلك، وأنظر في عيون كثيرة. وهذه رحلات شاقة. عند مقابلة عملائي للمرة الأولى أشعر بالفضول تجاه المشكلة الحالية، في المرة الثانية تتعمق صورتها، ثم تتكرر في المرة الثالثة. في المرة الرابعة تصيبني بالغضب، وفي المرة الخامسة ترهقني. بعد المرة السادسة أُخطِر مركز الترجمة الفورية أن الدوار أصابني. وأن رأسي يدور، هذا ضرر مهني شائع. فتستقل حينها زميلة أخرَى دوامة الخيل اللغوية نيابة عني.

حدَث لي شيء ما. إذ تطفَّلَت عليَّ الأنوثة وغمرتني بالكامل. وما رأه الآخرون لم يكن أنا، وإنما هي. صادفتني نظراتُ الاستحسان في الشارع. وإذا دخلتُ مكانا ما، كان حضوري يشبه الحدث. انتشرت الشائعات حول كوني بعيدة المنال. لكنني كنتُ متاحة، كل ما في الأمر أن الجَمال أرهب الكثيرين، وكأنه حارسي الشخصي. كان الجمالُ مثل ملاك هبَطَ، وساعدني عندما كنتُ في أمس الحاجة إليه. فقد أضفَى توازنًا على كوني غريبة، لكنه زاد الأمر أيضًا . فكان الغُربة المُجسَّدَة. منحني الجمالُ ملامح حادة عزلتني عن الآخرين. ما كنتُ لأحتاج الحدة في بلدي، كان المجتمع ليطمسها ويمنعها من الظهور. هناك، ما كنتُ لأمتلك هاتين العينين الواسعتين الحزينتين، اللتين اختفت داخلهما جزئيًّا قزحية عين خضراء على خلفية بيضاء تحت الجفن العلوي. رأت هاتان العينان رغم ذلك أكثر مما يجب. صقلتني حقيقة كوني غريبة وكأنها صائغ. كنتُ أمارس سباحة الفراشة في فصل الصيف، وأرتدي ثيابًا تسمح بإبراز جمالي. وهكذا أظهرتُ احترامي لمنقذتي. فقد سمحتْ لي أن أعيش بكرامة. ودعمتني بمِشيَة ماجنة. فكرتُ في بعض الأحيان أنها أنا وأنني هي. لكنني كنتُ أعرف أننا سنفترق ذات مرة.

قالت مارا إن الجَمال الأنثوي يواجه الصعوبات سواء كان يعيش في دول ديكتاتورية أو ديمقراطية، فهو مُعرَّض للخطر في كل مكان؛ لذلك ينبغي على الدولة تأسيس وزارة خاصة لحمايته،

وزارة بها موظفون، وكلاب جيرمان شيبرد، وجنود، وبنفس حجم وأهمية وزارة الدفاع. لأنه على حد قول مارا: «الفتيات الجميلات مهمات.» وبينما كان مظهرنا الغريب يمنح بعضهم سببًا لعدم طلب الموافقة، فقد اعتبره آخرون تصريح دخول مجاني. إذ أعلن رجال من كافة الأعمار ومقاسات الأحذية، وأيًّا كانت نسب ذكائهم عن مطلبهم بالنظرات، والتصفير، والكلمات، والإشارات، والقبضات. بل إن بعضهم توسَّل إلينا كي نسمح له بلمسنا. كانوا مدمنين ينبغي علينا أن نحصل لهم على المخدرات، وكأننا من أباطرة تجارة المخدرات الأثرياء. شعرنا بالتقزز والخوف، وتعجَّبنا من تأثير مظهرنا. اتهمونا بالاستهتار. فنحن فاسدتان، نغريهم بالهدايا دون أن نرغب في منح شيء. لكننا لم نكن نغري، وإنما كنا ساحرتين.

سُرعان ما استفدتُ من قواعد اللعبة. كنتُ موضِع ابتغاء، لذلك كنتُ ثمينة. حصلت هذه الفتاة الفارِعَة ذات النهدين المختلفين – أحدهما ممتلئ مثل نهد امرأة، والآخر ما يزال مدببًا وغير ناضج – على القوة بشكل غير متوقع. لم يكن أحد قد رأى صدرها العاري بعد، لكن رغم ذلك كانت عليه ندبات من النظرات. وسام شجاعة وتذكير بالألم. كانت الجولات إلى العالم الخارجي مثل المعارك، إذ كنتُ أقف تحت قصف من الرغبات. حينها طلب رجل عجوز المساعدة مني. دخلتُ منزله، فدفعني إلى السرير بارتجاف. هربتُ صارخة. أما المُدرِّس فحدَّق في فمي بينما كنتُ أذكر الأفعال الشاذة، ثم فقد توازنه، وتعلَّق في رقبتي. نفضته عني مثل خنفساء مايو.

هل ينبغي أن أنفض الجَمال بالطريقة نفسها، وأن أطرحه أرضًا ثم أنصب فوقه صليبًا خشبيًّا؟ تحسستُ جسدي بحذر، وسألتُ نفسي عمَّا يريده الآخرون مني وبأي حق. هل سأكون في أمان إذا تجاهلتُ هدية الأنوثة، وتدثرتُ بثياب بالية؟

لم أسمح بأخذ ما هو لي، وبادرتُ بالهجوم. فإذا حضرتُ حفلة مسائية، أُحلِّق بنظري كي أتفحص كل الضيوف من الإناث. مثلما يتحقق زعيم المافيا مما إن كان أحدهم يتنافس معه على المنطقة. لا، لم تكن هناك مَنْ هي أجمل مني. أوه بلَى، تقف هناك واحدة من نوعي. التقت أنظارُنا. تعرَّفنا على بعضنا مثل أعضاء في منظمة سرية، وتحركنا نحو بعضنا. فقد كنتُ بحاجة إلى التعزيز. أنا ومارا– كنا لا نُقهَر معًا. إذا سرنا على امتداد ممشَى النهر، تعالَى هتافٌ صامتٌ من المقاعد والمقاهي. كان هذا إعلان وصول الفتيات اللاجئات، والانتصار على التدرج الهرمي الاجتماعي. دارت بنا النظراتُ، ورفعتنا للأعلَى. كنا نحلمُ بالفعل باكتساح المدن الكبرَى، وحتى هذه المدن سنستولي عليها. رفضت الفتيات المحليات من ذوات الأوضاع الميسورة والأجساد المتواضعة هذا الأمر باعتباره حماقة. وأصابتهن الكيفية التي تعريَّنا بها بالاضطراب. لم يكن هذا الأمر اجتهادًا، وإنما كان مسرحًا، كان مسرحية مريبة. ساءت سمعة المسرحيات، ونال الاسترقاق الاحترام، وأصبح الجَمال مدفوعًا إلى التأقلم نحو الأسفل وإلى الزحف على الأرض. علينا فقط ألَّا نتميز، وكأن الأمر غير منصف للمواطنات الأخريات.

لم نشعر بالسعادة. أدَّى الاكتئاب عمله. وراحت المُعلِّمة التراجيدية تقوم بالإخراج. كان طرازنا معطوبًا. إذ ساد الوضع الاستثنائي في حالتنا دائمًا. فتقدَّمنا إلى الميدان، ولم نُخفِ الغربة. كانت الغربة ألمنا وتميزنا. ألبسناها أثوابًا مبهرجة من متاجر البضائع المستعملة. فلتنظروا هنا، بإمكان العوز أن يكون نافعًا للغاية. إذ قدَّم لنا كثيرًا من الاستياء. فجمعنا الحسد بنشاط، واشترينا احترام الذات في المقابل. أظهرنا ما نملُك، ولم ندَّخِر شيئًا لوقت لاحق. سيطر علينا جوع نحو التقدير، ولم يكن هناك سِوَى اللحظة الحالية. لم نرغب في أن نكون متفرِّجات في هذه الحياة، واحتقرنا التحفُّظ. أجواء معرض مفعمة بالصخب، وبهلوانات متجوِّلات، وقطع فنية من قوتِّهن الخاصة. سير على الحبل المشدود. منَحَنا الكبرياءُ الاتزان. لم نسقط أبدًا. لكننا كنا نوشك على السقوط، مائة مرة في اليوم.

ها هي ذا تأتي مرتدية تنورة شبه شفافة تطوِّقها كشكشة حمراء، وكأنها ترتدي ملابس داخلية مثيرة، بينما يطل نصف نهديها من قميص قصير أحمر – فكلمة «أحمر» مرتبطة بكلمة «جميل» في لغتها. يرتكز جسدها الثقيل داخل حذاء لمَّاع أحمر، ويهدِّد بتحطيمه. تشتكي من أن فكرة قهرية تطاردها، مفادها أن المارَّة يضحكون عليها. لا تستطيع الملابس منع الجسد من أن يفيض، وكلماتها المتدفقة تكشفُ أسرارها الأكثر حميمية. منذ أن اعتدَى عليها كثير من الرجال، أصبحت عارية. ترَى زوجها المقتول في أحلامها يجمع الأثاث، ويخرجه من الشقة التي تشاركاها. فتصبح روحها خاوية، إذ يُخرِج الميتُ محتويات الروح. حينها، عندما وجدت أثار عنف على جثمانه، بدأت رحلة البحث عن القتلة. كان زوجها رجلًا عظيم الشأن، فحذرتها دوائر سياسية من إجراء التقصيات. لكنها لم تكُف عن ذلك، فلقَّنوها عندئذٍ درسًا لن تنساه. أصبح هذا الأمر يؤثر على حياتها منذ ذلك الحين.

الطبيب النفسي أجنبي هو الآخر هنا، فلديه وجه بيضاوي وعينان خضراوتان. أدبه المُنتَقَى ماكر وسلس، وقوة الكلام لديه هائلة. أتأرجح بخفة إلى مستوَى لغوي أعلى، وألاحِظ في سرور أنني أُترجِم شفهيًّا بذهن حاضر، وأهتم بإخراج صياغات أنيقة. هذه هدايا لغوية أمنحها له.

– «أيُّها الطبيب، تبحث عيناي في السوبر ماركت عن زجاجة

الخمر، لكن هذا غير منطقي، مع هذه الأدوية الكثيرة.»

- «لا يمكننا السيطرة على كل شيء. تنشأ من الأعماق بداخلنا رغبات غير منطقية. السيطرة مفيدة، لكن عندما تكون بنسبة ثمانين بالمائة فقط. لأننا إذا لم نخطئ، لن يستطيع أحد أن يسامحنا.»

ماذا أفعل مع الرغبة التي تتصاعد في داخلي؟ أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أضعها تحت السيطرة. يقول خبير الروح إنه ينبغي عليَّ أن أُخطئ، وإنه سوف يغفر لي هذا الخطأ. إجاباته موجهة لي أنا أيضًا، أنا على وجه الخصوص. أعرف في الوقت نفسه أنني المترجمة الفورية هنا، وأنني أتوهم نهاية خيالية. لا أستطيع أن أنظر للرجل بعد الآن، أشعر أنني عارية، وأن بإمكانه رؤية فِكَري المحظورة. الحياة مُتَأَجِّجة، والأشياء المُفحمة تحدث.

- «أيُّها الطبيب، عندما يزورني زوجي في الحلم، فهذا يعني أن شخصًا سيموت.»

- «هل تحققتِ من صحة هذا الأمر؟ هل مات أحدهم بالفعل؟»

فتتنفس وتقول:

- «غدا سأتلقَى حكم الإعدام الخاص بي في مركز أمراض القلب.»

يقدم الطبيب النفسي حُججًا مضادة لذلك، لكن المريضة لا ترغب في أن يأخذ أحد منها المآسي، تلك النياشين التي منحتها لها

الحياة. فمعايشة المآسي تمنح صاحبها كيانًا. ها هي الآن تتباهى بكراهيتها لذاتها:

- «أيُّها الطبيب، عندما أنظر لنفسي في المرآة، أرغبُ في صفعي.»

- «يجب عليكِ البحث عن مساحات مفتوحة يمكنكِ أن تحظي داخلها بالسرور.»

هل يرغب الرجل في أن يقول إنه يفكر في تقاسم المباهج معي؟ تتلاشَى المريضة مع نُواحِها، فهي ليست سِوَى صانعة الوفاق بيننا. أنا مُهدَّدَة بفقدان الواقع. هل يرَى هذا ويعالجني معها؟ لا، لقد خرج من دور الطبيب النفسي، ويواصل المغازلة. إنه وهم القوة المطلقة الذكوري المتمثل في جعل امرأتين تتعلقان به في الحال. ربما يحدث الأمر معه ببساطة، مثلما يحدث معي، فيتحدث اللاوعي برقة إلى اللاوعي الآخر. تحلِّق نسبة العشرين بالمائة من الرغبات التي لا يمكن السيطرة عليها ذهابًا وإيابًا، وتملأ الغرفة المرتفعة بالمبنَى القديم للعيادة الخارجية للأمراض النفسية.

يحتاج تجمُّعنا إلى طرف ثالث. أنا المركز الذي تتلاقَى فيه الخيوط. فهو لا يعرف إلا نصف ما أقوله، ويبقَى النصف الآخر خافيًا عليه، وكأنني نصف محتجبة، وأقبع في ظلام جزئي. بإمكاني أن أخدعه. وسيتوجب عليه أن يثق بي. هذه الثقة هي الحب. أداعِب كلماته التي أحوِّلها إلى لغة أخرَى، وأهديه كلمات جديدة أزينها مثل تاج الزفاف. حِينَئِذٍ ينتابني خوفٌ من أن المريضة قد تتعافَى، أو تنتحر، أو تخضع للترحيل، عندها لن أرَى

الطبيب النفسي أبدًا بعد الآن.

تشكو المريضة قائلة:

- «أيُّها الطبيب، عندما أسير في الشارع، لا أجرؤ على النظر إلى أحد.»

- «تستهلك إشاحةُ النظر طاقة منكِ. سأعطيكِ واجبًا منزليًّا يتمثل في النظر يوميًّا إلي عيني أحد المارَّة؛ كي يُخفِّف عنكِ العبء.»

أتغلَّبُ على نفسي، وأنظر إلى عيني الطبيب النفسي، ثم أغرق في بحيرة خضراء وأشعر بالخفة.

يقول لي عند الوداع:

- «توليتُ هذه الحالة؛ لأنني لم أعالج مريضًا في وجود مترجمة فورية من قبل أبدًا. إنها تجربة جديرة بالاهتمام. سأكتب عنها مقالًا علميًّا.»

حظيتُ بحبيب، قابلتُ شعبًا جديدًا. مشية غير مُكترثة، وأذرع غير عادية، تصدر عنها إيماءات عنيفة، ولكنها غليظة أو رقيقة، وبشرة ذات لون مختلف، والعَرَج النفسي الذي يعاني منه المُقتلَعون من كل البلاد. كانت تصدُر كلمة أو نظرة فهم، فيصلني بالفعل الدفء الذي تدفق من كون الشخص الآخر أجنَبي. عثرتُ على القبول في الغرابة المشتركة، وتركتُ نفسي أسبح في ممر الغربة المائي. لغة تجمع ألف لكنة أصبحت لغتنا الأب. وبينما كنا في حالة تحرر من أمر التزام الأدب تجاه البلد المضيف، اغتبناه في احتقار، وسخرنا منه، واختلقنا نظريات، وأخطأنا، وبالغنا في غير اعتدال، وأصبنا الهدف، وضحكنا بصوت مدوٍ، وعبَّرنا عن رفضنا بالإشارة. كنا فيما بيننا، ولم يعاقبنا أحد بالجملة المَهيبة: «إن كان الأمر لا يعجبك، عُد أدراجك إذن.»

عثرتُ عليه، عثرتُ على وطن التذمر. وجدتُ «نحن» جديدة. كانت حرية التعبير موجودة هنا. لم تكن مكفولة بموجب القانون، وإنما عايشناها في السر مثلما كان الحال في الديكتاتوريات التي هربنا منها. تذوقنا الفاكهة المحرَّمة للمعرفة الإلحادية، ولم نعُد من أهل الجنة بأي حال. لَكَم استشاطت الأحاسيس غضبًا تحت السطح المصقول، انتشرت مشاعر الاستياء والفِكَر العدائية في الأنحاء، فاختمرت ثورة المهاجرين، لكنها لم تندلع أبدًا. لم نبادر بالاحتجاج، فهو لم يُقَم لا على المنابر، ولا على الشاشات. كنا

نصمتُ إذا اقترب منا أحد السكان المحليين، وكأنه جاسوس من أمن الدولة يتنصتُ علينا، ثم نكسو وجوهنا بتعابير بريئة تدربنا عليها في الخفاء.

عاش شعبُ الأغراب هنا دون صوت مسموع. ربما كان ينبغي علينا أن نقول في النهاية: «نحن هنا! يجب عليكم وضعنا ووضع اختلافنا في الحسبان. لا نريد أن نحاكي ما تفعلونه وحسب، فنحن لا نرَى أن كل ما لديكم مرغوب فيه. من غير الممكن أن نكون ممتنين على الدوام. تلك حياة مصطنعة. ونحن نريد المصداقية.» لو كنا فقط قد خرجنا من الخفاء، ودعونا المقيمين منذ فترة طويلة إلى احتفال وطني، وكشفنا عن معرفتنا، وأذواقنا، وحماقاتنا، ومطالبنا المشروعة، وأشواقنا. لكن مَنْ كان ليرغب في الإنصات إلينا في هذه الغربة الجاحدة غير المتنة؟ كنا شعبًا منقسمًا، وغير منظَّم، وغير ثوري، أضعفه الشعور بالنقص، واعتراه التزعزع في اللغة الجديدة. انكمشنا خوفًا تحت القواعد الغريبة، وأجهدَنا الحنين إلى الوطن. كنا على استعداد للتكيف إلى حد فقدان الكرامة، لكننا كنا متحدين ومتمردين عند التذمر في الخفاء فقط.

قال أحدهم فجأة في وسط الاغتياب: «لكن ليس الجميع على هذا النحو، أعرف شخصًا ...». أضعفت الجبهات المغلقة نفسها، إذ انشق عدد لا بأس به، وراح يتحرك بين عوالم متعددة. وقع أيضًا بعض السكان المحليين في نهر القوميات المتعددة؛ إذ لم يكونوا محليين إلا بمقدار معين على كل حال. انضم إلينا دخلاء وغرباء في

بلدهم الخاص:

«من الجيد أنكم هنا. دفعنا بنو جلدتنا كي نُفلِت الحبل، وأنتم التقطُّونا.»

اختفى الستار الحديدي، الذي تشبثتُ به ذهنيًّا، قبل أن يُهدَم الجِدار الحقيقي حتى. فنشأت الحوارات، ولم تكن عصيدة وطن تغلي بإفراط في إناء المعجزات.

عندما قدتُ الدرَّاجة على رصيف المشاة هذه المرة، لم تهتف السيدة المارَّة بأي تهديدات، وإنما ابتسمت لي. مَنْ كانت يا تُرَى؟ ومَنْ كانت تظنني؟ ظل الأجانب يعتقدون على نحو متزايد أنني من السكان المحليين؛ فكانوا يشكرونني في تحفظ، ويعتذرون لي تحسبًا، ويعتذرون على وجودهم هنا في العموم. وعندما كنتُ أعلن عن كوني أجنبية غريبة، كنا نضحك ونسخر من فكرة المواطن والأجنبي الغريب.

لم يكن الجميع متكافئًا في شعب الأجانب الأغراب أيضًا. كان مجتمعًا عشائريًّا يتكون من مجموعات عِرقِيَّة. فوفقًا لمبدأ التسلط كان هؤلاء، الذين عاشوا هنا منذ فترة أطول، ينظرون بازدراء إلى الوافدين الجُدد. رفضتُ أن أقع في هذا الأسر العِرقِي: «أُدعَى إيميجراتسيا أي المهاجرة. وطني أجنبي. ولن أسمح لنفسي بالهجرة من هنا بعد الآن.»

كانت قد حذرته حينها قبل الزواج:

- «أنا أكبر منكَ بخمسة عشر عامًا، هل ترغب في حمل هذا الجِوال معكَ في الأنحاء؟»

كانت بالنسبة له جِوالًا مليئًا بالمجوهرات. صائغة عاشت في مدن العالم الكبيرة. كانت تنظر بالعدسة المكبرة إلى أحجار الراين الدقيقة، بينما راح يطوف في وطنه بشاحنة مليئة بالحصَى. لم يكن هناك شيء أحب إليه من ترك الطُّرُق الزراعية المترية، والانعطاف بعد ذلك في تجاعيدها الضخمة، إلى أن فقَد نفسه في هذه الكتل الصخرية التي تزن ١٢٠ كيلو جرامًا.

ينقلها من السرير إلى الكرسي المتحرك، ومن هناك يرفعها ليضعها على المرحاض، ثم يدفع بطنها الكبير من الجانب بين رجليها إلى أن يتدلَى بعمق فوق مقعد المرحاض. تفقِد البول والغائط في الطريق إلى الحمام. فيُطلِق على هذا الموقف مُسمَّى «أوقات عصيبة»؛ إذ ينظف كل شيء، ويغسل ملاءة السرير، بالنسبة له يجب أن يكون كل شيء نظيف ومهندم. تُعاني من مرض السكري، ولديها صمامات قلب اصطناعية، كما يتقيح جرح مفتوح على ساقها منذ شهور.

- «أرجل فيل حقيقة»، يقولها بينما يتكلف الابتسام.

عندما يرفع ساقها، يُصاب بالدوار. يحدث هذا بسبب الشريان

الضيق في عنقه. يعاني إلى جانب هذا من الربو، والبواسير، أوه حسنًا، وتمزُّق الأربطة، والتهاب عظم الفك، والأمعاء التي انتهَى أمرها. يجب عليه أن يرتدي حفاضًا، عندما يغادر المنزل. أي أنه مريض هو الآخر.

يحاول الطبيب أن يُفرِّق بين مكونات الجِوال المليء بالمعاناة الذي أفرغه المريض أمام قدميه؛ ليعرف ما يخص الرجل، وما يخص المرأة، ومنذ متى؟ لكن الرجل لم يعد يعرف أين سيتوقف جسده فجأة. يحقن الزوجة بالإنسولين للمرة الأخيرة في الساعة الثالثة صباحًا، ثم يغلبه النعاس في سرير الزوجية. ينتبه في الصباح الباكر إلى أنين صادر عن الألم؛ ليقوم بتطهير الجرح على ساقها. يحين بعد ذلك وقت الطبخ، والتسوق السريع، وحقن الإنسولين مجددًا، وفيما بين ذلك الرحلات الثمينة إلى المرحاض، إلى أن يحل المساء أخيرًا، ويُعرَض البرنامج التلفزيوني «مَنْ سيربح المليون؟». بعد إنجاز العمل، يصبح خالي البال تقريبًا، بعدما يتيقن من أن المرأة الجالسة بجانبه نظيفة وغير جائعة.

تداعِبُه قائلة:

– «لقد غلبكَ النوم أمام التلفاز. ياللعجب!»

فيضحك.

– «ما شعوركَ الآن، وأنتَ تعرف أن زوجتكَ وحدها في المنزل منذ ساعتين؟»

- «شعور مروع. ماذا إن أصابها إسهال، كيف ستصل إلى المرحاض؟»

يحكي عن المصاعب الجسدية دون تقزز، ودون أن تعتريه أي ثورة.

- «إنها بحاجة إليَّ.»

لم يُظهر الغضب إلا وهو يحكي عن توصية الأخصائية النفسية بالحصول على إجازة لبضعة أسابيع. فهي – وفقًا لكلامه – ادَّعت هُرَاء محضًا مفاده أن من حقِّ كل إنسان أن يعتني بنفسه فقط.

- «عفوًا، لكن كيف يُفترض بهذا الأمر أن يحدث؟»

اختبأ الزوجان بعيدًا منذ وقت طويل داخل نسيج المرض، واقتصرا على تعامل مرتبط بالجسد باحتراف – تأتي الممرضات إلى المنزل، لكنه لا يرغب في مساعدتهن. فهو لا يُريد أن يُحرَم من اختصاصه الوحيد.

تعلَّم في وقت مبكر أن على الناس مساندة بعضهم بعضًا. من بين الأطفال التسعة، الذين أنجبتهم أمه، مات ثلاثة في وقت مبكر. إذ أنجبت توأمًا في وسط أعمال الفلاحة، وعلى الرغم من أنها سارعت لوضع الطفلتين في فرن الخبز، ماتت كل منهما بسبب التهاب رئوي. جاء هو بعد ذلك إلى هذا العالَم، ووُلِد بعده أخ جديد عامًا بعد الآخر. أدَّى الأطفال مهامًا في المنزل والحظيرة، بينما كانت الأم تجُرُّ أكياس البطاطس. عادت ذات مرة حزينة إلى المنزل، فسألها

عمَّا حدث، وتلقَّى صفعة بسبب هذا التساؤل. وهكذا عرف خبر موت أخته الصغرى. انتهَى الإنجاب بعد ذلك؛ إذ سقط الأب أثناء ثمالته في جدول الماء، وتجمَّد حتى الموت. لا، هو لا يشرب. فقد تبنَّى قِيَم أمه. بإمكان تفانيه أن يخدم سربًا كاملًا من الأطفال. لكن أطفاله الصغار عبارة عن أمراض، لن تصبح بالغة أبدًا، ولن تغادر المنزل، وإنما تحصل على أشقاء عامًا بعد الآخر.

طلبت طبيبة العائلة إجراء تقييم لشخصيته، لكنه صَمَد بفخر أمام الطبيب الفاحص قائلًا:

- «أنا قادر على العمل بنسبة مائة في المائة. فرعاية زوجتي وظيفة بدوام كامل.»

على الرغم من أنني أتمنَى وجود مِشْرَط جراحي يفصله عن تدمير ذاته، أقول له نقيض ذلك، وأحترم القيمة الاجتماعية:

- «أنتَ رجل صالح.»

- «أوه لا، أي شخص سيفعل هذا.»

الإشارة بالرفض في تواضع زائف، سلوك مناسب جدًّا لثقافة التخلي عن الذات التي ما زالتْ تستقر بعمق في داخلي، والتي أيقظها هذا الرجل الآن. لن أُقدِّمَه إلى مِشْرَط الخلاص القاطع الذي لم أتعرَّف عليه إلا في المنفَى. فتشكرني عيناه ببريق سعيد.

جرَى الاعتناء بأمر المراقبة. كانت الدولة أرشيفًا سريًّا. فلم يكن ينبغي لشيء أن يتلاشَى. كل ما حدث، كان يُحفَظ ويُفَهرَس وفقا لمعايير عالية. وعبث أمناء المحفوظات المتطوعين في كل مكان. كنتُ بالكاد أفتح فمي، فيطعنوني بالأسئلة:

– «متى حدث ذلك، ما اسم المكان، من كان حاضرًا، ما اسمه؟»

إذا قلتُ شيئًا عن الحالة المزاجية وعن مشاعري. يا لها من مساهمة عديمة الجدوَى.

– «المزيد من الدقة يا آنسة.»

إذا أردتُ مع ذلك أن أكون دقيقة، وسألتهم عن راتبهم (كان هذا السؤال المحوري دليلًا على الاهتمام الإنساني بالنسبة لنا)، يرفعون بصرهم، ويجيبون في استياء وعدم دقة:

– «كافٍ.»

كان لكل شيء مكان واسم في الأرشيف. وكلما كان التعامل رسميًّا، ازداد إصرارهم على مخاطبتهم بشكل شخصي.

إذا ألقيتُ التحية على الجارة دون أن أدعوها باسمها، جاء في ملف منح الجنسية:

– «الآنسة إكس لا تحيي جيرانها بأسمائهم. إنها ليست مندمجة بشكل كافٍ.»

مَنْ لا يعرف الاسم، لا ينتمي إلينا. مَنْ لا يعرف الاسم أجنبي غريب وغير مُهذَّب. كان هذان المصطلحان متماثلين. لكن مهما اجتهدتُ، لم أكن قادرة على ملاحظة اسم «روديزولي» العجيب. ربما أتذكر، على النقيض من ذلك، نظرة جار ودودة لبقية حياتي.

كانت مارا أكثر دهاء في هذا الشأن؛ إذ كانت تُهمهِم بشيء ما بعد جملة «وداعا سيدة»، ثم تختتمه بالمقطع المخصص للتصغير «-لي». فحصلتْ على جواز السفر بفضل فكرتها العبقرية، وبفضل اللون الأحمر لهذا الجواز كانوا يلوِّحون لها لتمُر في كل المعابر الحدودية.

اتُهِمتُ بارتكاب جريمة متكررة خطيرة أخرَى: «أهملَت الآنسة إكس جرف الثلج شتاءً بعد الآخر.»

أفسدتني الديكتاتورية التي كانت الدولة فيها مسؤولة عن كل شيء؛ لذلك اعتبرت الثلج ملكية عامة، في حين أنه كان عبئًا شخصيًا مُوكَلًا إليّ.

امتكلتُ جواز سفر عديم الجنسية. كنتُ أُدعَى إلى مقر الجمارك، إذا أردتُ عبور الحدود. فيُفحَص جواز السفر الأزرق في ارتياب. لم تكن هناك دولة مسؤولة عني. وقفتُ على مساحة متر مربع من اليابسة. كانت أرض «الأنا» سندي الوحيد. فرُحتُ أكنسها، وأجرفها لتصبح نظيفة، وواصلت الاستفزاز دون حياء، وادعيتُ نسيان تاريخ يوم الغسيل الخاص بي. فساهم هذا في حدوث إقبال على التجمعات المعادية للأجانب.

أطلق محققو منح الجنسية السؤال التالي: «عندما تقف الآنسة إكس أمام البيت، هل يتولد لديكَ الانطباع بأنها واحدة من السكان المحليين؟». فأجاب جاري قائلًا: «أوه لا»، ثم حاول إبراء ذمته قائلًا لي: «لم أستطع أن أكذب أمام السلطات.»

اجتمع رجال ذوو نظرات جادة من مختلف المهن مع ربة منزل في إحدى المدارس، وطرحوا عليَّ أسئلة عن الطريقة التي تعمل بها الديمقراطية، وعما إن كنتُ أعرف إذن مَنْ بيده السلطة في هذا المجتمع العادل. قلتُ إنني شعرت للتوِّ أن الديقراطية كانت موجودة بدرجة كافية. فأشار مدير لجنة منح الجنسية في حزن قائلًا:

- «لقد أبديتِ رأيًا ناقدًا لدولتنا.»

- «لأنني مواطنة صالحة.»

أصدرت هيئة المحلفين الحكم التالي:

- «لا يمكن منح طلب التجنيس.»

لكنني لم أستسلم. كنتُ قد قضيتُ عدة سنوات هنا في تلك الأثناء، وعثرتُ على أصدقاء، وقد صدَّقوا على اندماجي الناجح بتوقيعهم. يبدو الاندماج مثل الذوبان. أُفضِّل لو أنهم أقرُّوا بمشاركتي، لكن حينها لم يكن أحد ليجرؤ على التفكير في أن المهاجرين بإمكانهم المشاركة في المجتمع، والبقاء كما هم في أثناء ذلك.

عندما حان حفل المنح في نهاية الأمر، قال موظف منح الجنسية:

- «تشعرون جميعكم الآن بالسعادة والامتنان بعد أن سُمِح لكم بحمل جواز سفرنا بين أيديكم.»

جلس أشخاص من دول عديدة هناك في تحضُّر، ولم يقف أحد، كي يضيف قائلًا:

- «وأنتم تشعرون بالسعادة والامتنان لأننا أتينا إليكم.»

يجب عليكِ الوقوف في وقت ما. «آنسة» قبل اسمي المبتور – كانت هذه الآنسة أكثر شخص ممل عرفته، وهذا يعني أنني لم أعرفها على الإطلاق. لذلك ذهبتُ إلى المحكمة لاسترجاع اسمي، اسمي المؤنث الذي سلبه القائد مني عندما دخلتُ هذه الدولة. إلا أن الوطن الجديد المنصِف لَمَنْ يرغب في إعادة أجنحتي الصغيرة التي قطعها القائد عني. لذلك أضفتها في كل مرة، وحينها استعدتُ نفسي من جديد.

صالة المحكمة التي شهدت الكثير من الأمور المألوفة متسخة. الهواء بداخلها فاسد. السجادة الممتدة، والمقاعد الخشبية، والمناضد الطويلة مُهترئة. واللص المشتبه به هو العنصر الجامح الوحيد. كان ينتفض من فرط الاضطراب. فهو في النهاية قلب الحدث، وها هو يقف في منتصف القاعة. سأل القاضي بأسَى يتجاوز المعايير، ما إذا كان المتهم يعرف اسم نوع اللحم الذي من المفترض أنه سرقه. وهو ما لا يعرفه الشاب طويل القامة، والذي يزعم أنه لم يسرق شيئًا، وأنه لا بُدَّ وأن شخصًا آخر هو مَنْ فعلها ثم هرب. عندما أخذ القاضي في القراءة من الملف السميك الذي يمسك به، كان يترجم من اللغة الفصحَى إلى اللكنة الدارجة المحلية. أي أنه يريد بذلك أن يقول: نحن، المواطنون الأصليون القدامَى، فيما بيننا، نحن من نضع القواعد.

- «هل سبق وأن حُكم عليكَ من قبل؟»

- «كان هذا في الماضي. أنا اليوم شخص آخر.»

لم يسهم مظهره العصري المواكب لأحدث صيحة، وشعره الذي رفعه لأعلى مستخدمًا جِل تثبيت الشعر في جعله يبدو محليًا.

- «لماذا تحمل معكَ قصافة؟»

- «هل هذا ممنوع؟ هل تُعد القصافة سلاحًا؟»

تنهد القاضي وقال:

- «يمكن نزع بطاقات تأمين المنتجات باستخدام القصافة.»

إن الشاب مُجهَّز جيدًا للاستيلاء. إذ يُرجع القاضي سبب ذلك إلى طفولته.

- «أعلم أنكَ مررتَ بظروف صعبة. فقد تُوِّفيت أمكَ أثناء الولادة، كما قُتل والدكَ في الحرب.»

أقسمت المخبرة التي تعمل في المتجر الذي شهد السرقة وهي متخوفة، وأوضحت أنها رأت المتهم بأم عينيها، وهو يدسُّ اثنين كيلو من لحم الضأن في حقيبته المعلقة على ظهره. أومأ القاضي قلقًا ثم أصدر حكمه:

- «الحبس سبعة أيام.»

ألقى المتهم نفسه ليخر على ركبتيه، ثم فرد ذراعيه وقال:

- «أنا بريء. أحلف بحياة أمي!» ثم أدرك أنه ادعَى وفاتها، فأردف قائلًا: «أقسم بروحها.»

ارتد كل من القاضي وكاتب المحكمة خطوتين إلى الخلف. كما قبعت المخبرة السرية في الزاوية. كسر مشهد مسرحي لا نعرفه إلا من الروايات النظام المعهود. اقتربت من الشاب الذي اندفع منتحبًا بين أحضاني، فأخذت أربت عليه ضاحكة وقلت له:

- «آه، أيُّها الكف الصغير، ليس هذا بشيء، إنها فقط سبعة أيام.»

وبناءً عليه اعتذر الشاب على بكائه.

سألني القاضي:

- «بما ناديتيه؟»

- «الكف الصغير.»

- «أه، طويل اليد.» قالها وقد هدأ.

- «الكف الصغير اسم التدليل لورقة البرسيم.»

عندئذٍ ارتد خطوتين للخلف.

غادرنا مبنَى المحكمة، بينما كان الرجل الشاب ينشد مني الدعم الأخلاقي أيضًا بعد الدعم بالتلامس.

- «يمتلئ معسكر اللاجئين بالأعداء الذين خاضوا الحرب ضدنا. الأمر غير محتمل، فقد قتلوا أبي.»

- «وماذا كان أبوكَ يفعل هناك؟ لقد قتل هو أيضًا بدوره.»

- «كانت تلك أوامر.»

- «يمكن عصيان الأمر.»

- «عصيان الأمر؟»

تهجَّى الرجل العنيد الاستهجان، وارتد ثلاث خطوات إلى الخلف.

كان السكان المحليون يحبون تقديم وجبات لكناتهم إلى الأغراب، لهجة وراء الأخرَى. إذ كانوا يصحبوننا من وادٍ إلى وادٍ، ومن مزرعة لكنات إلى الأخرَى. كان الكلام هنا مختصر ومتحجر. حيث تتعالَى أصوات صرير صادرة عن الحنجرة غير مألوفة. لم تكن اللغة تتراقص بخفة في قاعات ذات أرضية خشبية، ولم تعرف الإلهام، مبدع اللباقة. هل كان يتعين عليَّ خلع حذائي اللَّميع؟ في وديان اللكنات المحلية سادت تجربة حياتية تختلف في شفرتها عن تجربتي. فأنا لم أكن ضيفة صيف عابرة وهادئة من شأنها أن تفرح بأصوات لطيفة، بل أنا هنا حلَّت عليَّ لعنة التعامل مع ذلك. كانت اللهجة بمثابة عبق القبيلة، وسمتها المميزة. مَنْ لا تفوح منه رائحة اللهجة يبقَى ذلك الغريب الأبله. لا يرَى فيه أحد ذلك الضيف الذي يجلب البُعد والبخور معه. لم تكن اللهجات تعرف الطيران من أجل الطيران، فهي لا تعرف سِوَى الاستقرار. عانى اللاجئون من أجل إضفاء لمساتهم الخاصة ومستجداتهم على اللهجات؛ كي يفسحوا لأنفسهم وللعالَم بداخلها طبقة وراء طبقة.

أردتُ أنا اللغة المكتوبة التي لا تحمل أي رائحة، أشبه بالبيت الخاوي المدهون باللون الأبيض، ومتعدد الطوابق، وبه غرف واسعة، وسقفه عالٍ. أردتُ الانتقال إلى هذا البيت، وتنظيم حفلات راقصة للغة. كان الكثير من سكان البلد يتشككون في لغتهم الفصحَى التي لا تنبع من أسفل، من أعماق الإنسان. وكانوا

يعتبرونها لغة مجردة. كان صوتي باللغة الفصحَى عاليًا مثل صوت المخنثين. كنتُ أناديه كي يهبط لكنه ظل بأعلَى.

كانت اللغة الجديدة أكبر مغامراتي في المنفَى، ولم أدَّخر جهدًا لاكتشافها. كان الموضوع أكبر من مجرد كونه وسيلة للتعايش، فأنا كائن متكلم - وكنتُ أسعَى وراء كرامتي اللغوية. تحدثتُ بلغة الكتابة، أو اللغة الفصحَى، وكنتُ أردد تلك المقولة يوميًّا: «اللهجات ملك لكم. سأتعلم كيف أفهمها، إلا أنني لن أتحدث بها.» وتمامًا كما تركوا هديتي لهم، والمتمثلة في تحدثي باللغة الفصحَى وتجاهلوها، فعلتُ المثل بلهجاتهم. يا له من تزاوج دراماتيكي للغتينا! كنتُ أشك في نفسي في بعض الأحيان. اعتراني الخجل من لغتي، وأضعفني هذا، وكنتُ أصارع نفسي، وأقول لها: «ليست اللغة هي أصل التواصل، وإنما محتواها.» وعندما كان أحدهم يتحدث بإحدَى اللهجات بصوت مرتفع، كنتُ أهرب في بعض الأحيان من المكان، كما لو كان بمقدوري أن أهرب من واقع عدم وجود وطن لي. لم يكن في مقدوري، ولم أكن أريد أن أنتمي لهم كليًّا، بل كنتُ أرغب بشدة في أن أبقَى مُنحَّاة جانبًا. كان عليَّ أن أقاتل يوميًّا من أجل الحفاظ على قلعتي اللغوية، كم كان هذا مرهقًا للغاية. إلا أنه في تلك العزلة الواسعة النقية، ازدهرت لغتي الفصحَى.

فقبل أي حديث، كان الناس يسألونك بكل أدب:

- «هل تفهمين اللهجة المحلية؟»

لم أعد أرد بالإيجاب بانصياع تام، بل كنتُ أقلب الموضوع. وأصبحتُ أنا مَنْ يقوم بتوزيع الأدوار:

- «هل ترغبون بالاستمتاع بلغتكم الفصحَى؟»

وبين الحين والآخر كنتُ أجد مَنْ هو على استعداد لمشاركتي تلك العربدة المنبوذة، وكنا نقف سويًّا مشكِّلين دائرة فوق الأرض الخشبية، نشعر بالدوار ونحن نتبادل تلك الكلمات المُسكرة. إلا أن شريكي في الرقص كان كثيرًا ما يتعرض للاحتقار من قبل مواطنيه؛ لتساهله معي. فقط هؤلاء الذين تمكنوا من اللغة الفصحَى بدون جهد كبير، كانوا يستقبلونها بحفاوة. ويا له من تدنيس للمقدسات، عندما يريد أحد الغرباء أن يغير العادات اللغوية بتلك السهولة، ويضرب بها عرض الحائط. هل كان عليَّ أن أظل متلعثمة إلى الأبد؟ أزحت لهم الستار عن مرآة إعاقتهم، ورفضوني:

- «ألا تريدين معاودة التحدث بلغتكِ الأم مرة أخرَى؟ ألا تشعرين بالحنين إليها؟»

كنتُ قد احتفظتُ بذكرياتي اللغوية في غياهب الجُب. وكان الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا بالنسبة لي، للحديث عنها. إلا أنني كنتُ أعيشها: الهجرة لا تعني استبدال المجتمع الأصلي بمجتمع جديد. الهجرة هنا قابلة للتمدد، ومرنة، كما أنها قابلة للاختراق كذلك.

لهذا يجب أن تكون لغتها أيضًا كذلك.

لم تستطع مارا تحمل الضغط أكثر من هذا، وبدأت في التحدث باللهجة المحلية. وعند مفترق الطريق اللغوي افترقنا. لم تفعل مارا هذا بدافع شهوة اللغة، وإنما كانت قد قررت أن تندمج هنا فعليًّا. عندما تتحدث اللغة الفصحَى تبدو كأنك شخص أعرج، ويُعد اعترافًا ضمنيًّا بأنك غريب. إلا أن مارا أرادت بتحدثها باللهجة المحلية إخفاء الشيء البادي للعيان.

طوال خمسة عشر عامًا كانت تقفز حول رؤوس السيدات، وكان خطابها يتدفق بلا تفكير مثل الماء الذي تغسل به شعرهن. إلا أنه في بعض الأحيان كانت الكلمات تنطلق حادة مثل طرفي المقص. لم تدع الحياة الصعبة بالخارج تقضي عليها. كان صالون تصفيف الشعر مكان تحقيقها لذاتها. ثم سجَّلت ردها على إعلان زواج مغري. كان يعمل ميكانيكيًّا، وكان يكبرها بعشرين عامًا، وكانت صورته تحمل تعبيرات الجدية. فسألت ابنها قائلة:

- «أتريد أبًا جديدًا؟ إذًا عليكَ أن تستعد»، وسافروا بالقطار في رحلة إلى بلاد الأحلام استغرقت يومين وليلتين.

- «لقد كنت إنسانًا، والآن أصبحت لا أحد.»

هي لا تزال أحدًا، هي أم على هيئة حيوان مفترس، عندما تستشعر وقوع ابنها في الخطر، تنبري مستعملة لغتها السريعة للدفاع عنه، في الوقت الذي تقطع فيه ذراعاها الهواء، وتخترق أصابعها عيون الأخصائية الاجتماعية في المدرسة.

التي قامت بدورها بتعديل افتراضها، قائلة:

- «أنا لست هنا، لأحكم ، عليكِ أو أُقيِّمكِ، إلا أن مهمتي تتمثل في حماية ابنكِ. لماذا يتغيب بشكل متكرر عن المدرسة؟»

- «إنه يفيق من نومه صباحًا، وينظر إليَّ، وأرَى في عينيه الإجهاد فأسأله: هل أنتَ مصاب بالصداع النصفي مجددًا؟ فيغرق

مرة أخرَى في سريره.»

- «إنه بالكاد يملك عضلات.»

- «لكنه يذهب سيرًا على قدميه حتى محطة الأتوبيس.»

- «المدرسة لا تريده أن يستمر لديها أكثر من هذا.»

- «ليست لديه أي ميول عدائية، ويفعل كل ما يُطلب منه. وأنا أقوم بكل ما يجب عليَّ فعله، فطفلي دائمًا ما يكون شبعانًا ونظيفًا.»

- «هناك خطب ما في عائلتِكِ.»

- «إنها تلك الثغرة المصاب بها زوجي. والتي يملأها كل ليلة بتناوله للمشروبات الكحولية. ويصاب ابني دائمًا بالغثيان، عندما يراه على تلك الحال.»

وتحت وطأة هذا الضغط الشديد الذي تتعرض له المرأة، فإنها تحرق ما تبقى لديها من دهون مخزنة. أما الصبي فهو يخفف من الصدمات الكهربائية عن طريق حصوله على المزيد من الدهون. فقد ازداد وزنه في الغربة بمقدار ثمانية عشر كيلو جرامًا.

قالت الأخصائية الاجتماعية:

- «لم يتسن له في غضون نصف العام الدراسي الفائت، أن ينطق بجملة مفيدة بلغتنا. هذا يعتبر رفضًا ومقاومة من جانبه. هو لا يريد البقاء هنا.»

ارتجفت المرأة بشدة، حتى أن صوت طقطقة عظامها كاد أن يكون مسموعًا. إلا أن هذا الصوت كان مجرد صوت سلسلتها التي ترتديها في عنقها، والتي كانت تضرب صدرها المسطح.

- «ابني يحتاجني الآن أكثر من أي وقت مضَى.»

- «أنتِ من الأمهات اللاتي يفرطن في حماية أبنائهن.»

لم تدرِ السيدة ماذا عليها أن تقول، أأصبح حب الأم الآن شيئًا غير مرغوب فيه؟

- «لا بُدَّ وأن علاقة الأم بولدها في ثقافتكم وطيدة للغاية، حتى أنها أكبر من علاقة الزوجين» قلتُ ذلك متسائلة.

وافقت المرأة على ما أقول، ولوَّحت بذراعيها كما لو كانا جناحين. وعندها استوعبت أن بعض الطيور تتناوب أيضًا في حضانة أبنائها، وقالت:

- «هل من المفترض أن يعتني به زوجي. هو لا يعرف سِوَى طريقة واحدة في التربية: الرياضة والتمارين العسكرية.»

- «عليكي أن تخلقي جزرًا صغيرة أو علاقات لنفسكِ. فلتذهبي إلى المقهَى، ودردشي مع صديقة.»

- «ولكنني أدردش لساعات طويلة عبر برنامج سكايب مع أختي. لولا هذا لكنتُ أصبتُ بالجنون هنا منذ فترة طويلة.»

وأعادت الأخصائية الاجتماعية المحلية ما ألقته على أسماع

السيدة من مكانها الثابت على البر قائلة بصوت مرتفع:

- «جزرًا صغيرة!»

والطفل الغريق يطفو بفعل دهونه.

ذهبت السيدة لتحضر لقاءً يضم بعض السكان المحليين؛ لتتعرف على بعض الأساطير الحديثة المرعبة التي تدور حول الرجال، الذين يجبرون زوجاتهم الأجنبيات من خلال تجويعهن، ويبيعوهن إلى رجال أغراب من أجل تمويل إدمانهم للمخدرات. وهنا بدا لها زوجها كما لو كان رجل البر والإحسان.

إلا أن غياب الصبي استمر عن مدرسته. وكان يقضي طيلة يومه في تصفح الإنترنت.

انطلقت الأخصائية الاجتماعية في طريقها إلى حيث الرجل السكير بكلبه البيتبول، الذي لا يتوقف عن النباح، ثم انطلقت في طريقها إلى غرفة الأطفال ودخلتها:

- «لو كنتَ ساحرًا، ما الذي كنتَ ستقوم بسحره؟»

- «كنتُ سأضع الرجل الشرير بداخل قبعة، وأدعه يختفي.»

- «ماذا يفعل الرجل الشرير؟»

- «إنه يصرخ عليَّ، كما أنه يضرب الكلب كذلك.»

يُقبِّل الصبي قطة صغيرة من خطمها، ويضعها حول رقبته ، كما لو كانت جزءًا من جسمه الذي لا يتحرك. إلا أن الهرَّ فرَّ منه،

وظل ينبش الباب بكلتا يديه، ولكن الكلب البيتبول كان ينتظر في الردهة بالخارج. والسيدة لا تعرف الآن كيف ينجو كلاهما من تلك المصيدة. إذا ما طلبت الانفصال عن زوجها، فسيتم طردها إلى وطنها. يا للعار. تكاد ترَى النظرات الخبيثة تلفها من كل جانب.

- «إن كنتِ تريدين البقاء هنا، فعليكِ أن تجدي حلًّا لثلاثة أمور: السكن، واللغة، والعمل. أحُذركِ؛ لأنه بدونها لن تستطيعي أن تجدي لقدمكِ موطئًا هنا. فأهل بلدي لديهم روحًا شرسة.»

- «والدتي قوية، مثل الصرصور»، قالها الصبي.

إلا أن الأخصائية الاجتماعية ردت قائلة:

- «الصرصور في البيت، يختلف عن الصرصور في الغربة.»

ظل الصبي يربتُ على الهرِّ لمدة ساعتين كاملتين، يبدو أن الاثنين أصبحا من مدمني التلامس. والآن يُقبِّل الأم، قُبلة طويلة عميقة. صبي في الرابعة عشر من عمره، يسعَى وراء أكثر أنواع الحب راحة. وامرأة تستبدل استقلالها بزواج يجعلها امرأة غير ناضجة. هل تضحي بكل شيء فقط من أجل الحصول على الإقامة في بلد غني. هل تعتقد، أنها ستتزوج البلد؟ استطاع سفاح النساء هذا أن يستقطب قبلها عشر عرائس ليتزوجهن. وبقي وفيًّا لمذاقه الخاص، فقد كُنَّ كلهن من نفس البلدة. استطاعت إحداهن فقط، أن تظل معه وتتحمله، حتى حصلت على الإقامة.

يبدأ الرجل وهو تحت تأثير المسكرات، في ضرب خليلته الحادية

عشر، ويسخر منها قائلًا:

- «لماذا لا تذهبين إلى الشرطة؟ سوف يُعجِّل هذا من ترحيلكِ إلى بلدكِ فقط.»

إلا أنها تُصبِّر حالها بنصيحة كانت قد سمعتها من أمها، وجدتها، وكل المقربين منها قبل أن ترحل. تلك الجملة التي يمكن أن تترجم بطريقتين مختلفتين: «كوني صبورة» أو «تحملي».

فُصِل كل شيء بدقة متناهية، المشاعر عن العقل، الحياة الخاصة عن العمل، الدين عن الدولة. إلا الاقتصاد والجيش اللذين اندمجا في كعكة إيمانية واحدة. في كل عام كان جارنا يظهر لعدة أسابيع بمظهر العميد الشديد التأنق. لم يكن عليه بالطبع الإشراف على فئران التجارب في مصانع الأدوية، فقد كان ينتمي إلى سلاح المشاة، يحمل قنبلة يدوية أو عليه أن يتعامل مع سلاح مضاد للدبابات. مهنة هنا ومهنة هناك، لا يمكن لإحداها أن تسير دون الأخرَى. عندما طالبه ابنه بالتوجه إلى العلمانية، غضب بشدة ونصحه بشراء تذكرة تحمله إلى عالم الشر- وهو الاسم الذي كان قد أطلقه على مسقط رأسي. «ولكن رحلة ذهاب بلا عودة!» كانت دراما حقيقية بين الأب والابن.

كنتُ أُفضل الابن بالطبع، لأن كلينا كان يعاني تحت وطأة مثل هؤلاء الآباء، كدنا أن نصير شركاء، لولا أن الابن رفض فرضي لسطوتي على مملكة الخير. وإذا أردنا أن نصف الوضع من وجهة نظر السياسة، فقد كنتُ مجرد خائنة هاربة من مدينته الفاضلة. وحتى أكون جديرة بحبه، كان عليَّ أن أفقد ذاكرتي. كنتُ قد بدأتُ أكتشف للتوِّ مزايا الديمقراطية، في الوقت الذي كان هو يؤسس لنظامه المغلق. لم يكن يريد الواقع، بل كان يريد التمرد على والده. عوالم سوداء وبيضاء متعارضة. فلم يكونوا في حاجة إلى خبرتي الملونة.

سمعتُ عن أحد الشباب، كان قد أطلق على نفسه اسم «غضب». وكان قد كتب مذكراته بساحله الذهبي، تلك المذكرات التي كشفت عن برودة سكانه. كتب أن الكراهية الموجودة على الساحل هي الجلاد الذي سيقتله. تمرد على حكم الإعدام الصادر بحقه، والذي كان على المرض اللعين (السرطان) أن ينفذه. كما أنه لم يكن يطمح في أن يؤدي تلفظه بمعاناته التي مرَّ بها، إلى شفائه. كان يُسمَّى بالخوف، إلا أنه وصف طفولته وشبابه الذي كان عليه أن يقضيهما وسط الفقر المدقع وسط الأغنياء بالغضب. كنتُ أقرأ المذكرات، وقد وقعت في حيرة شديدة. فقد وصف فيها أحد السكان المحليين بطريقة أكثر تطرفًا من كونها غريبة. كانت فِكَري الغامضة واضحة ومؤلمة حتى النهاية، بل إن صياغتها قد تخطت كل نهاية يمكن تصورها. كان «غضب» يربط الساحل الذهبي بالسرطان. وقد أيقظ «غضب» الشجاعة بداخلي، حتى استطعتُ أن أفكر فيما وراء الهمس. لم يُزجِ بالناقد اللاذع في السجن، بل جرَى التعامل معه بشكل مختلف. لم يهمني، إن كان صحيحًا، أن ساحله قد قتله. كان «غضب» يتصور الأغنياء، كما لو كانوا هم جلاديه. بل إنه قالها صراحة. الغضب الداكن جعلني أبصر بوضوح. لقد كان «غضب» هو تميمة حظي.

تعمقتُ في جوهر العادات للبلد، واكتشفتُ أن الطريقة التي يتعامل بها السكان المحليون للحفاظ على مسافة مناسبة في كل موقف، لم تجعلني أشعر بالمرض فحسب - حيث أن المرض لم يقتصر هنا على ضغط القلب الذي قد يلزمنا الفراش، كما هو الحال

لدينا في بلادنا، ولا يجب أن نشكو منه، كما هو الحال لدَى الأنظمة الديكتاتورية التي تكره حبوب الدواء البيضاء بل وتلعنها أيضًا. فحتى مع أكثر الأمراض المفضلة لدَى الناس، لم يكن علينا أن نتعايش معه في سلام كما هو الحال في الوطن. فهو لم يكن مجرد قدر، ولا قوة الطبيعة، ولا حتى عقاب من الله. فبتلك الكلمات لم نكن لنجني التعاطف. ولم يكن من المسموح أن نسيطر على مشاعر الآخرين من خلال التحدث عن مرضنا أمامهم لاستدرار عطفهم. كان على المرض أن يظل مواطنًا يعيش في الخفاء، وكان مجده يتقلص مثله مثل أي أمر سخيف آخر لا يجب الحديث عنه. كان تشريح المرض هنا يجري تحت مجهر الفكر. ليتقلص ويصبح شريكًا لك، ليقاسمني الطريق، إلا أنه يمكنك الحصول على بعض التشجيعات للوصول إلى حلول بسيطة. فكان ألم رأسي يرافقني أثناء سيري، حتى أنه أثار فضولي لفك شفرة لغته.

حتى أن هذا السور، الذي كان عادة ما يوضع أمامي، أثبت على غير المتوقع أنه طوق نجاتي. فثقافة وضع الحدود المتبعة هنا، طالما كانت تلفظ كل محاولاتي للذوبان. حتى إنني شعرتُ بالإهانة، وفررتُ إلى عالمي الداخلي، وهناك حافظتُ فيه على شخصيتي وراعيتها. وبالخارج لم تقع حوادث كبيرة أو كوارث تستدعي تدخلي. أُهذِّب عصبيتي بالداخل. وفهمتُ فجأة طلب الكاتب المحنَّك: «كن إنسانًا، وحافظ على المسافات.» حتى أنا كان باستطاعتي أن أستفيد من حقي في وجود مسافات، ولم يكن عليَّ استيعاب نفسي. ومنذ ذلك الحين لم أعُد مضطرة للاستمرار في

هذه الزيجة القهرية مع البلد المضيف. وكانت المسافة التي تعد إحدَى المتطلبات المسبقة هنا، أرضًا خصبة للتفكير. وفي الظل المنعش للسور كانت هناك أريكة خشبية مدرسية قاسية، كنتُ أنطوي على نفسي هناك، وأجد شريكًا لحواراتي. ولم يعد الأمر مهمًا بالنسبة لي، ما إذا كان هناك من سيتقبلني، وسيطرت على مشاعري المتدفقة، ولم أعُد أبديها، إلا لمَنْ يُقدِّرها. فكنتُ أطلق لها العنان مرة، وأمسكها مرة أخرَى. وبين هذا وذاك كنتُ أقبع في كابينة التحكم في السد.

قال الأب ساخرًا:

- «لماذا يحتاج ابني إلى المدرسة؟ الرجل عليه أن يُتقن الرماية، وليس عليه أن يتعلم حروف الهجاء».

أبدت الأخصائية الاجتماعية تفهمها، كما لو كانت تستوعب كل ما هو إنساني. ثم وجهَّت حديثها بحماسة إلى الشاب:

- «لقد شوَّهتَ زملاءك في المدرسة. وقد طالبت إدارة المدرسة بإقصائكَ منها.»

بدا الشاب ذو الخمسة عشر ربيعًا متبلدًا. فقد كان هذا هو الدور الذي يقوم به في ظل وجود والده. فالحيوية كانت تُعد تمردًا على سطوة الأب. وبدلًا من القوة اختار الابن الآن التبصُّر، وهي صفة اكتسبها في الغربة.

- «لدي مشكلة. فعندما أتقبل الإهانات، دون أن أقوم بأي ردِّ فعل من جانبي، يتملكني شعور بأنني لم أحسم الموضوع كما يجب. وبمجرد أن أبدأ بالضرب، أشعر بالارتياح.»

بدأت الأخصائية الاجتماعية حديثها برفق الآن وقالت:

- «سيعلمكَ مدرب (اللاعنف) كيف تسير القواعد لدينا.»

- «أنا أعرف القواعد جيدًا، أريد أن أتعلم كيف أنهي المواضيع، دون أن أنتهك القواعد.»

ينتاب الأب الارتياب الآن. فالابن يتحدث اللغة الأجنبية بسهولة وسرعة، ويتكلم بذكاء، وليونة، فهو يقترب من البلد المضيف، ويبتعد في نفس الوقت عن أرض الآباء والأجداد. لقد تحوَّل الابن إلى حلبة للصراع بين تقاليد العشيرة وكل ما هو حديث.

وهنا يبدأ الأب بإخراج سلاحه وقال:

- «نحن نُعدُّ بكوننا هنا طالبين للجوء مواطنون من الدرجة الثالثة. ننتظر منذ سنوات قرارًا بشأننا من مكتب الهجرة. هل هذا هو الاحترام؟ أنتم بسياساتكم الخاصة بالهجرة تتحملون وِزْرَ كون ابني قد أصبح يتسم بالعنف.»

- «ولكن لدَى ابنكَ مستقبل ينتظره، حيث يمكنه أن يتعلم حرفة بعد المدرسة.»

- «الحرفة والعمل ليسا أهم شيء. على الرجل أن يتعلم كيف يحمي نفسه، حتى الموت إن لزم الأمر.»

يا له من وضع بائس مع مثل هذا الأب. فلا هو تعلم اللغة، ولا هو يسعَى وراء رزقه عن طريق عمل شريف. وهنا نفث الأب غاضبًا، مطالبًا بمساحته التي لم يعُد قادرًا على احتلالها بسلام.

أصرت الأخصائية الاجتماعية على الاستمرار في تحليها بأدبها برسمية شديدة:

- «هل توافق على استدعاء المدرب النفسي الخاص لنجلكِ؟»

فهم الأب السؤال على أنه ضعف، واحتدت لغة حديثه.

- «لا أريد شيئًا سِوَى أن أذهب من هنا، ويجب أن أعمل من أجل هذا».

- «بالطبع هو موافق. فلتعطيه الطلب لتوقيعه.»

- «لن يضع أحد يده على ابني!»

بعد مرور عام أفسح غضبه المجال أمام الاكتئاب، وهو الأمر الذي كان أكثر امتاعًا في ترجمته. الحزن، الذي هو الأخ الأكبر للغضب. إلا أن الإسقاطات على العدو كانت لا تزال مستمرة:

- «لقد أمرضتموني، لذا عليكم أن تساعدوني لأقف على قدمي مجددًا. في وطني كنتُ رجلًا حرًّا، أما هنا فيقول لي كل شخص، ما عليَّ فعله.»

قدمتُ له نصيحة مكتوبة في أحد كتيبات الاندماج المجتمعي للمهاجرين، وقلتُ له:

- «عليكَ تعلم اللغة، والعمل، عندها فقط ستحصل على حريتكَ مجددًا.» كانت مقاومته الخرقاء غير مريحة، ومألوفة للغاية بالنسبة لي.

- «من السهل عليكِ التحدث، فأنتِ قوية الإرادة.»

كان الغرباء الصامتون يسعدون بلعب دور الضعفاء. وكانوا يراقبون ممتلكاتهم الخاصة بغيرة شديدة. كلما ازدادت القوة

التي يرونها بداخلي، ازدادات رغبتهم في تحطيم ولو جزء منها. هم لا ينفكون يشتكون ويشتكون. ثم يسألون عن رقم هاتفي. وقد أعطيته لاثنين من اللاجئين المفضلين بالنسبة لي، على الرغم من أن القواعد التي يلتزم بها المترجمون تمنع ذلك. وكانت تلك القاعدة من أجل حمايتنا.

- «علينا أن نتواءم»، قلتُها للرجل، إلا أن قولي هذا قد أثار الرعب بداخلي. كم مرة سمعتُ تلك الجملة من مواطنيَّ، وكم كنتُ أعترض وأثور عند سماعها.

- «أنا مصاب حرب، وكان عليكِ أنتِ بالذات أن تتفهمي ذلك. إلا أنكِ تقفين في صفهم بالفعل.»

- «أنتَ تبحث عبثًا عن منتجع صحي. إلا أن هنا لا يوجد سِوَى حياة واقعية.»

أثناء حضوري إحدى الفعاليات فنَّدتُ جميع أكاذيب أحد الساسة، وقوَّضتُها من جذورها. ثم جلستُ في قفص الاتهام، بتهمة الشكوَى. لم يكن الأمر شكوَى بالمعنَى المفهوم؛ لأنه كان قد تحوَّل منذ فترة طويلة إلى نقد مبرر للأوضاع السيئة المفروضة. كنتُ قد تعلمتُ، كيف أبني بيتًا متينًا من الحجج، انطلاقًا من مجرد شك غامض، تعلمتُ كيف أبنيه، وأضع اللبنة فوق اللبنة فيه. كانت القاضية تنظر في الادعاءات والتهم الموجهة إليَّ، كما لو كانت ترتقي طابقًا تلو الآخر. ثم برأتني من تهمة القذف. أحببتُ رزانتها بشدة، وكذلك إخلاصها للحقائق، وقدرتُ هذا الأسلوب الذي بدا لي في الماضي أنه كئيب، وبدا لي أنها تُخفي دفئًا غير محدود وراء شدتها الظاهرة. كانت شدة واضحة ومطلوبة، لتتمكن من تبديد ضباب الأكاذيب. وباسم المجتمع، منحتني القاضية الحق في فضح أكاذيب المدَّعِي، وإدانة أي كذبة نطق بها. كان هذا لازمًا من أجل الديموقراطية. أصبحتُ بشكواي هذه إحدَى دعائم الديمقراطية! ومن خلال هذه القاضية، أحببتُ البلد، الذي تعلمتُ فيه أن الشكوَى يمكن أن تصبح ركيزة. لا يمنحك هذا رصيدًا هنا، وإنما تحصل على مكافأة مقابل إنجاز. ومن خلال إنجازي هذا استطعتُ أن أصبح مواطنًة هنا، في هذه البلدة التي يسكنها الكبار. وهكذا أصبحتُ كبيرة مثلهم. في قاعة المحكمة، أثناء الصراع بين الحق والباطل، حصلتُ أنا على وطن. كان عليَّ أن أترك وطني الأم، إلا أنه ظل حيًّا بداخلي، ولم أفقده أبدًا. كنتُ طفلة

لأبواي، مزيج استمر في خلط نفسه.

لم أذهب منذ فترة طويلة إلى حانة «الحلفاء الاثنين»، والتي كان يجتمع فيها بعض مواطنيَّ، ويتبادلون الأحاديث حول كل ما هو جديد. تجنبتُ الطريقة المقيدة لتحريك المشاعر عاطفيًّا وليس من خلال التفكير، آه، وكذلك المؤامرات. في هذا العالَم المتناهي الصغر، كان من المعتاد أن يتم النظر للسيدات بتفحص من الأعلى للأسفل. أفضل إرث لدينا، والمتمثل في النكتة، والتهكم، والاستهزاء، والسخرية، أصبح أمرًا لا مفرَّ منه. وحتى الكوميديا السوداء، كانت لها حدودها وقوانينها، التي كان على المواطنات أن تتبعها. كان من الممكن التعرف على المجتمع الذي ينتمي إليه الشخص من خلال ضحكه، وملابسه، ونمط حياته. كان رضاهم مشوبًا دائمًا ببعض التحفظ. هل يتعين عليَّ أن أشعر بالذنب كونهم يلومونني على كل خطوة أتخذها، ويرون أنها ابتعاد عن جذوري؟ كان طريقي يبتعد منذ البداية. كنتُ أشعر براحة أكبر مع الغرباء، الذين لا أعرف عاداتهم، والتي لم يكن عليَّ أن أتبعها. كانوا يقدِّرون كل بادرة للتعاطف؛ لأنهم كانوا غير جديرين به. كنتُ أشعر برغبة مبهجة مع الغرباء.

كنتُ أُميِّز هؤلاء الذي يتحدثون نفس لغتي الأم، إلا أن هذا التمييز بدأ في التناقص تدريجيًّا. عندما أخذت الأمور في التصاعد تدريجيًّا، لم أعد أتقبَّل الفساد على الإطلاق. فهناك قواسم مشتركة أخرَى تحظَى بالأولوية. وقد منحني المواطنون الذين تعلموا أهم

دروس حياتهم في الغربة، تعويذة الغربة. وعندما كنا نلتقي، كنا نشعر بالغربة والقرب في ذات الوقت. لم يعُد هناك قربًا آخر يمكن أن يكون موجودًا.

بدأتُ في الخروج عن نطاق الحدود، حتى أستطيع استيعاب غربات أخرَى، بدلتُ اللغات، ووسعتُ نظرتي للحياة والأمور. وبالتالي عشتُ في كثير من الغربات. فالغربة التي كنتُ أعيشها في وطني الجديد لم تكن تكفي في حد ذاتها، لأنها لا يجب أن تكون موجودة في الأساس. إلا أن السؤال المتكرر الذي كان طالما يُطرح عليَّ، كان يقذفني للخارج مرة أخرَى: من أي بلد أنتَ؟ وفي الغربة التي كانت تلف كل البلدانِ التي زرتها، سُمح لي أن أبقى غريبة. هي غربة متحررة. وكنتُ أُوطِّن نفسي داخلها لمدة نصف يوم، من أجل حب التجربة فقط، وليس لأن أحدهم كان يتوقع هذا مني.

وطالما لاقيتُ لاجئين يشتكون من بلدهم المضيف، ويبحثون عن موضِع مثالي لهم. لا بُدَّ وأنه موجود في مكان ما. وعندما يبدأون في غِبطتي على إمكانيتي العيش براحة في البلد الذي اخترته، أفاجأهم بتفاصيل محرجة لا يعرفونها عن تلك الزيجة مع هذا البلد. إذا عاب أحدهم أن البلد بأكمله يقبع في أمان تحت الساحة الرئيسة، مليء بالأموال المسروقة، حبيسًا داخل ساعة مقاومة للماء باهظة الثمن، ولم يكن حلوًا تمامًا مثل الشيكولاتة، كنتُ أقف في هذه الحالة لأدافع عن جوانبها المحببة لدي، والمتمثلة في: سيادة القانون، والوضوح، والمثابرة، والتزاوج التكافلي بين الكلمة

والفعل. ومن أجل تقبُّل هذا، استغرق الأمر مني في البداية عقودًا من أجل تغيير رؤيتي للعالَم. وعندما كنتُ أعود من رحلاتي، كنتُ أشعر بتقبُّل الوضع أكثر من المرة التي قبلها. الهدوء الشديد لم يعُد يزعجني. أصبحتُ آخذ نفسًا عميقًا كما لو كنتُ أعود إلى شيء مألوف وهادئ. لم يكن البلد راضيًا عن نفسه فحسب، بل كان مكتفيًا ذاتيًا، ولم يعُد الأمر يعنيني بالمرة. فعدم رؤية العيوب، جعلني أهتم برؤيتها. نشيطة كالعادة.

القميص الكاروه، مع قصة الشعر القصيرة، والمشية المتأنية، لا بُدَّ وأن صاحبها أحد القرويين المحليين. توقفتُ بدراجتي: «أين دار مناسبات القرية هنا؟»

يرفع كتفيه عاليًا، كما لو كان مستسلمًا. يبدو أن اختياري كان خاطئًا، فهناك مهاجرون في هذه القرية أيضًا. وبعد مرور خمس دقائق يدخل دار المناسبات، حيث تتحدث الموظفة عن خطة للاندماج السريع. نظر إليَّ نظرة توحي بأنه ينتظر مني المساعدة، فهو يحتاج إلى خدماتي. وبهذا فإن وصوله يكون قد أغلق الدائرة التي فتحها سلفه قبل مائة وخمسين عامًا، عندما قرر قطع ثلاثة آلاف كيلو مترًا ليبتعد عن هنا. وهنا جاء سليله مرة أخرَى حاملًا شجرة العائلة إلى جانب صورة تضم مائة وستين من أقاربه.

«لقد عدتُ إلى وطني»، قالها المهاجر العائد بسلام بطريقة رسمية.

إلا أنه عندما يبدأ الحديث عن مزرعة الدواجن الموجودة في وسط الحشائش والسهول، يعود للحياة مرة أخرَى. كان موظفوه المكسوون بالريش (دجاجاته) ينتجون ألفين وخمسمائة بيضة يوميًّا، وأكد على أنه هو مَنْ كان يتولَى الإدارة، ويعلم جيدًا، كيف يعمل الشخص. أما عمله الحالي في الورشة فهو غير مناسب بالنسبة له. فهناك لا يعمل سِوَى الأجانب. وهم يثرثرون كثيرًا، ورغبتهم في العمل والإنتاج أقل كثيرًا من المطلوب.

محاولاته المستميتة لدفع شبهة الغربة عنه، ذكرتني بأن الغربة هي في حد ذاتها هوية. إلا أنه حتى لا يملك تلك الهوية. فهو يُري الجميع شجرة عائلته في صمت. أما في حالة أنه كان قد أقرَّ بكونه غريبًا، كانوا قد استخرجوا له بطاقة هوية ملونة على الفور. إلا أن غروره لا يسمح له أن يُقرَّ بذلك، فهذا الاعتراف يُلقي ضوءًا مختلفًا عن سبب عودته. إلا أنه لن يستطيع أن يحصل على عضوية الانتماء التي يتوق للحصول عليها، على الرغم من جواز السفر الذي يحمله. قالت الموظفة «الموطن» وكانت تعني بها البلد التي قَدِم منها. ترجمتُ الكلمة بجفاف شديد، كما لو كنتُ لا أستشعر، كمية الألم التي قد يشعر بها جراء فقدانه لهويته.

وهنا بدأ في البحث عن مَخْرَج حيواني لوضعه، بعد فشل المَخْرَج الإنساني، فقال:

- «لو كنتُ أعمل مع الأبقار، والأغنام، والدواجن، والخنازير، والخيول، لكنتُ قد تعملتُ أسماء تلك الحيوانات بلغتكم.»

إلا أن الموظفة صاحت بدهشة قائلة:

- «لن يكون عليكَ العمل في الحقل والمزرعة مع الحيوانات فقط. الفلاحون غير مهذبين.»

دعاني المواطن المغترب إلى منزله، حيث نجد داخل تلك المساحة الصغيرة كل الدلائل على الوضع المزدهر لهجرة ناجحة مجتمعة في مكان واحد: طاقم جلوس منجد بالجلد الأسود كائن أمام غرفة

المعيشة التي تضم جهاز كمبيوتر، وتلفاز، وركن للشاي. قدَّمت لي الزوجة الشاي، وبعض البسكويت الرديء الذي يدل على رقة الحال، وكانت تروي الكثير من الحكايات من هناك، عن الدجاج والاستيقاظ في الصباح الباكر، والحياة في معاناة من أجل البقاء على قيد الحياة فقط.

ثم اصطحبتني حتى خرجنا من باب المنزل كما يمليه الواجب في الريف، لتقول بانزعاج:

- «عندما أسير في الشارع أستمع إلى عدد لا متناهي من اللغات، وأرَى الكثير من الغرباء. ماذا يريدون لدينا؟»

بدأتُ في ركوب دراجتي في حين سمعتُها تقول خلفي:-
- «ها هي تقود دراجتها، تلك الأجنبية.»

ومن أجل أن أعتاد على الجو، كان عليَّ جمع الكثير من الخبرات حول أجيال بأكملها في خلال فترة زمنية قصيرة، فقد تعين علي الإسراع من تطوري النوعي. وضعتُ نفسي في حالة الطوارئ، واستنفرتُ كل أدوات الاستشعار لدي، وحلّقتُ عاليًا. استخدمتُ قرون استشعاري الجديدة في بناء الروابط، واستعضتُ عن المهارات والأعضاء التي افتقدها من خلال التحليق بعنف حول الموضوعات. نوع متوسط محاط بقرون استشعار عالية التردد حول الخصر، سريعًا، بل أسرع. وفي المساء، كنتُ أغط في نوم عميق مُجهد، وأغرق في الأحلام التي كانت تدور كلها عن السفر والترحال، حيث أرَى أنني مسافرة بالقطار حاملة حقيبة سفر قديمة، وفقدتُ كل ما

فيها، واشتريتُ لنفسي ملابس جديدة، وتعرضتُ للسرقة فطاردتُ اللصوص وضربتُهم ثم تصالحنا، فأهدوني ثيابًا جديدة. وقضيتُ الليالي في تجربة تلك الملابس، وهيأتُ نفسي لتغييرات كبيرة. كم كان الأمر ليتسم بالخمول والكسل، إذا كنتُ قد حاولتُ أن أضغط نفسي داخل ثوب واحد لائق. إلا أن خزانات ملابس العالَم بأكمله كانت مفتوحة أمامي على مصراعيها.

ودعتُ تفكيري عن المعجزات، فلا توجد جماعة، ولا كائن خارق علوي، كان سيمكنهم أن يحملوني إلى حيث أريد. وتعلمتُ حروف الهجاء - وأن الفعل ألف لا بُدَّ وأن يترتب عليه الموقف باء، وأنني عليَّ أن أتوقع أن التاء هو التالي، وأن الراء لا تحدث بدافع من الرحمة، وإن حدث، فلن يحدث هذا بالضرورة بالنسبة لي. وجثوتُ على ركبتي، وبدأتُ في الزحف ثم وقفتُ، وجريتُ، ووقعتُ، ثم استمريت في المشي. أما تفكير المعجزات فقد احتفظتُ به فقط من أجل العجائب، ثم بعد ذلك بفترة راودتني أحلام الطيران. لقد اكتسبتُ سماتٍ واقعية، كافية بالكاد حتى لا تثقلني كثيرًا، وارتقيتُ كثيرًا في الارتفاع، وأصبحتُ مسافرة في المرتفعات عالية، فرأيتُ مناظر كثيرة مثل الحدائق المغطاة بقطارات الألعاب الكهربائية، وأخيرًا ضحكتُ. عندما توقفتُ عن إجبار نفسي على البقاء هنا بأي ثمن، تحوَّلتُ إلى حالة من النسيان المريح. ومن مكاني العالي حاولتُ أن أفك الشفرات، وأحاول أن أقرأ ما بين السطور، كما تعلمتُ أثناء وجودي تحت الحكم الديكتاتوري، أن أتخلص من الطريقة المحلية الجديدة التي تعلمتُها للقراءة. ويبدو

أنه بالفعل لم يكن عليَّ أن أتخلص من كل ما حملتُه معي من الوطن، وبهذا لم يكن عليَّ أن أبدأ من الصفر.

اتخذ حبل تفكيري المشدود منحًا جديدًا – ألا وهو التفكير الكامن فيما وراء كل تفكير. لقد فقدت الإحساس بالكمال المألوف بلا رجعة، إلا إنني أصبحت قادرة على اكتشاف بعض الألفة في بعض الأشياء التي لم تكن مألوفة من قبل. سأصمم فستانًا جديدًا لي لا مثيل له. لم أكن أعرف أن هذا بالإمكان، أن تكون الثقافات ،شأنها شأن الأقمشة الملونة، سلعًا تُباع وتشترَى، ولا أنني سأصبح أيضًا تاجرة ذات يوم، تبيع وتشتري، وعليها أن تُبقي عينيها مفتوحتين، وهي تقف بالبازار، ولا يوجد شيء مستحيل بالنسبة لها. كما كان عليَّ أيضًا أن أترك العشيرة الغريبة حتى أتمكن من التفكير بحرية. أصبحت الغربة الخالصة التي وصلتُ لها، ملجأ مألوفًا، بل والأكثر من ذلك أنها أصبحت خيارًا مألوفًا. لم أكن أرغب في فقدان مُسرع الفِكَر هذا مرة أخرَى.

بدأ اشتياقي إلى التقارب مع أي إنسان في الانخفاض تدريجيًّا مثله مثل الاشتياق إلى الكلمات الرنانة الخاصة، ومثل الملائكة السمينة. إذا قابلني مرة أخرَى ضعفًا وهزالًا تجاه أي معلومات قاسية، فسأتحمله بثبات، دون إظهار أي ألم. قبل ذلك، كنتُ أحبس نفسي داخل زنزانة، بنيتها استنادًا إلى توقعات خاطئة. نشأتُ في دائرة، ولهذا لم أتمكن من تقدير المربع، وكل التنوع في الأشكال الهندسية. ولاعتيادي اللون الأحمر الداكن، فقد كنتُ

أخشَى من اللونين الأرجواني والأخضر. كم كنتُ مثل حيوان مقيد! والآن أصبحتُ إنسانًا، ردود أفعالي ضعيفة، والاختيار يحل محلها. حواسي الحادة تقف إلى جواري، وتلعب دور المستشار، ويتعلم العقل الغرض الرئيس منه خلال كل تلك الروعة المحيطة به. هناك، في مكان ما بين العوالِم، يوجد مكان لي. لم يكن محجوزًا لي، إلا أنني استطعتُ الفوز به لنفسي.

لم أعُد غاضبة وحزينة باستمرار كما كنتُ من قبل، وإنما أصبحتُ بطريقة عملية أجمع كل شيء، أمزج ما تبقَى من القديم بكل أنواع الجديد، الحُطام منه وما تم تجميعه، ولن أتوقف أبدًا عن ترميم بنيتي الجريئة، التي قد تنهار أحيانًا، وتثبت نفسها في أحيان أخرَى.

أشعر وكأنني أحوي بداخلي مشاعر متضاربة، كما لو كنتُ أجمع بداخلي الدخان الصادر عن احتراق الفحم، وفي الوقت ذاته عقل نظيف، قابل للتحلل بيئيًّا، أعمل بسلاسة، وبدقة ومهارة، وببطء تأخذ سيارتي شكلًا ديناميكيًّا متناغمًا. أقوم في بعض الأحيان باستخدام هذه الرافعة أو تلك، أقود، وأقود، ودائمًا ما أصل إلى المكان المطلوب في الوقت المحدد. وأشعر بالامتنان، فلا بصيرتي، ولا يمكن لعقلي العملي، ولا امتناني تهديد هويتي المنفتحة.

كان مبنَى مركز إعادة التأهيل مبنًا واسعًا من الزجاج والخشب. كانت أرضية الفناء الأمامي مكسوَّة بالألواح الخشبية، كما لو كان أحد المنازل التي نقضي بها عطلة نهاية الأسبوع على أحد الشواطئ الرملية. يوجد في الردهة نباتات لطيفة. إلا أن الإنسان ليس نباتًا متسلقًا. يدعوك المبنَى الجيد التهوية للانطلاق، إلا أن ساكنيه لا يمكنهم الاستفادة من تلك الدعوة. فأجسادهم ثقيلة، تستخدم الكراسي المتحركة في الحركة. في الدور الأول من المبنَى، وتحت السقف المسطح، يكون الإنسان في وضع أفقي. حيث يرقد هنا المصابون في المخ في حالة غيبوبة.

قالت أم الشاب ذي الثماني والعشرين عامًا بحماس: «لقد حرَّك قبضته بالأمس.»

كانت قد سافرت مع زوجة ابنها لمدة يوم وليلة بالحافلة. جلستا بعيون دامعة، هما عاملتان معتادتان على الادخار، وعلى الكد والكفاح، كما أنهما اعتادتا على تنظيم حياتيهما وحياة أبنائهما كذلك، دون وجود رجل.

قالت الطبيبة:

- «لقد كان هذا مجرد رد فعل، إلا أننا سنجتهد لنحوِّله إلى كلمات.»

- «بالأمس كان يصرخ. هل يعتبر هذا لغة؟»

- «إنها مجرد أصوات غير واضحة، فعضلات الأحبال الصوتية لا تعمل بطريقة صحيحة، إلا أنه يمكن أن تنشأ عنها كلمات. يجب أن ننصت إليه ثم نُصنِّف تلك الأصوات.»

سألت زوجة سائق السيارة النقل:

- «كيف سيكون المستقبل؟ «ابننا تمَّ عامه الأول فقط.»

- «لن يستطيع أن يمارس عمله مرة أخرَى، ولن يكون أبدًا نفس الشخص الذي كان قبل حادث التصادم. إلا أن الرجال في سن الشباب تكون لديهم القدرة على الاحتفاظ بحيويتهم على الرغم من إصابتهم الشديدة. هذا ما نعتمد عليه. كما نعتمد عليكِ أنتِ أيضًا، على وجودكِ إلى جواره وعلى اللغة الأم.»

أبقت الزوجة يديها مفتوحتين، وقد تبدد منها الأمل. فقد كانا قد وضعا الخطط واستدانا، بمجرد حصوله على وظيفة السائق بالخارج. الآن هي تريد أن تبقَى إلى جانبه، وأن تقوم على رعايته.

تحدَّث موظف التأمين حديثًا مطولًا عن المال. واستمعت السيدتان إليه باهتمام مشوب بالخجل. فليس من المناسب، أن يتم حساب الكارثة بالأرقام. إلا أنهما كانتا تخشيان أن تتوقف المبالغ التي كان يتم تحويلها إليهما شهريًّا.

كانت السيدة الشابة تفكر في المستقبل. فهي لم تملك أبدًا تأمينًا يضمن لها السعادة. لقد تعلمت في الماضي أن تتحمل المجهول.

بعد تغيير النظام، جاءت الحرية كما انتشر البؤس كذلك. فُتحت الحدود في الوقت الذي توقفت فيه مصانع الماكينات في المدينة، وأغلقت أبوابها.

مَنْ قام بترويض فِكَره ومشاعره مثل هاتين السيدتين، سيوفر عليَّ أثناء الترجمة، الحرص على إرساء النظام.

يقف الشخص المصاب في المخ، مدعومًا بأربطة حول خصره. كونه يقف مستقيمًا أمر يدعو إلى الاحترام. ثم يفك أخصائي العلاج الطبيعي الأربطة، ويحرر الرأس بحذر، فينهار المريض، ويعود مرة أخرَى إلى كونه كتلة من الجسد الأعزل الملقَى على الكرسي المتحرك. يتلقَى الشاب المساعدة مرة واحدة في الأسبوع على الوقوف لمدة ربع ساعة. يجب أن يشعر بالهدف، الذي لن يتحقق أبدًا، وأن يشعر بقيمة الماضي الذي كان يعتبر في يوم من الأيام أمرًا مفروغًا منه.

- «إلى متى سيعيش؟»

- «عشرات السنين على الأرجح. فهو يمتلك قلبًا شابًا، مفعمًا بالحيوية.»

أشاحت الأم بوجهها المكفهر. الأمر واضح. تمدُّ أخصائية العلاج الطبيعي ذراعي المريض المشدودة بعناية، وتحلق له ذقنه، وتنظف أسنانه بالفرشاة، ثم تناديه باسمه. تقول إنها تحبه؛ لأنه فضولي. هذا يبدو غريبًا. لكن حياتهم اليومية تعتمد على المليمترات. لا

تزال الأم تفكر في الكل المفقود. لا تعرف المعالجة سِوَى الأجزاء المكسورة، وتنتبه إلى مكان تحرك الجزء المكسور لجزء من الثانية. سيدة العلم العظيم الذي يعتمد على أصغر الخطوات. تطأ الأم بأقدامها ببطء أعتاب تلك المدرسة الصعبة.

في الفناء الذي قضيتُ فيه طفولتي، كنتُ أتزعم مجموعة من الأطفال تنزل إلى الشارع؛ لتقوم بأعمال الخير. لا يكاد يأخذنا أحد على محمل الجد، لكننا كنا نأخذ أنفسنا على محمل الجد. واستمر الفناء حيًّا بداخلي سرًّا، كما لو كان خطة لحياتي، حتى وجدتُ شكلها في النهاية بعيدًا عن أصولها. ذات مساء توقفت حافلة صغيرة إلى جانبي. وكان على بابها ملصق مُقيد عليه شخص بالحبال حتى رقبته، كما كان فمه الذي كان مفتوحًا استعدادًا للصراخ مسدودًا. صعدتُ إلى الحافلة، وأظهر مقطع فيديو عمليات التعذيب في ظل حكم ديكتاتوري بعيد، وظهر شباب وشابات في سني وهم يجمعون التوقيعات. كانوا جذَّابين بالنسبة لي، أحرارًا، نظروا إلى ظلال العالَم، وأخذوا حقهم في المقاومة. صرتُ واحدة منهم، وتركتُ حزني، ودخلتُ الدنيا.

أينما ذهبتُ، أبحث عن الأفنية الخلفية، وأجد أطفالها، وأناس بسطاء يمتلكون نفس الروح، ويقومون بنفس الأفعال. الخيوط الدقيقة والقوية التي أستخدمها للتواصل مع المجموعات المختلفة هي الفناء الخلفي، حيث تريد مجموعتنا القيام بأعمال جيدة. حتى لو لم يأخذنا أحد ممَنْ هم في السلطة على محمل الجد، إلا أننا نأخذ أنفسنا على محمل الجد. ومرة تلو الأخرَى، تُغلق إحدَى الدوائر نفسها، وأصبح على يقين مرة أخرَى – أنه يمكن التخلص من لعنة المنفَى. من الممكن إقامة أفنية متنقلة، وذلك بالاستفادة

من الخسائر الكبيرة.

تتراكم الخبرات الثقافية بداخل شخصيتي الطبقة فوق الأخرَى. لا تبقَى مُخزَّنة هناك فحسب، بل تتواصل بعضها مع بعض، وأجرؤ على القول أنها تشكل الآن أساسًا متجدد الهواء وبالتالي مرنًا. والطابق العلوي عبارة عن مساحة فارغة أبقيها نظيفة، خالية من الغبار. لقد تركتُ روابط الدم ورائي، إلا أنني أبدًا لم أترك مفهوم القرابة. إنه يتوسع باستمرار، مع كل تحوُّل أمر به. الملابس تتغير، لكنني يجب أن أحتفظ بالشعور بالانتماء بداخلي. تنمو الهوية بفعل العمل التحويلي، وليس فقط من خلال الاستمتاع بثقافة جديدة. فليس عليَّ أن آخذ كل جديد أتعرف عليه وأعمل به؛ ليصبح جزءًا مني.

التقيتُ ببعض القرويَّات، اللاتي طُردن من قراهن على يد بعض الجنود المشاكسين. حيث أهدتهن بعض المنظمات الدولية الملابس المستعملة. وأعربت القرويَّات عن شعورهن بالمهانة جراء هذا النوع من الإحسان الضعيف. لقد فقدن منازلهن، وكان عليهن أيضًا أن يفقدن نعومتهن الأنثوية – المتمثلة في الثياب الملونة التقليدية التي كن قد حيكنها بأنفسهن. كن يردن أن يقذفن بتلك الهوية الغريبة في معين الغضب، إلا أنهن مزقنها بعد ذلك إلى شرائط، وقطع مربعة، ومثلثة، ثم قمن بخياطة الأجزاء الصوفية، والحريرية، والقطنية، وقطع الدانتيل بعضها في بعض مكونين أغطية كبيرة ملونة، غطين أنفسهن بها. استطعن تقبُّل الدفء الذي صنعوه

لأنفسهن من القصاصات، وحفظن أنفسهن تحته أثناء الهروب. استطاعت هؤلاء القرويَّات الفخورات أن يريننني، ما يمكن أن تكون عليه الهوية الجديدة. إنها تمنحك شعورًا بالأمان، لكنها لا تجبرك على أن تكتسي بجلدها. يجب في البداية أن تتعرض للقصِّ، ثم نُعيد نحن تجميعها بعد ذلك. تجميع القطع وحياكتها بشكل جديد، إنه نشاط أنثوي قديم، يساعد على خلق الهوية. هناك، حيث ينمو العالَم كله جنبًا إلى جنب، حيث تستمر المجتمعات في نسج الكرة الملونة، أنسج أنا كذلك خيوطي فيها.

أحاول أن أدفع عيني للنظر بعيدًا، وأعكس معاناة كوني غريبة، وأطالب بحقي في كوني غريبة، وأسلب الغربة كشكل من أشكال الوجود، وأفكر مرة أخرَى، وأشعر وكأنني في بيتي في غربتي. وفي القطارات ألتقي بأناس من ثقافات مختلفة. ثم نشكل عائلة كاملة سويًّا. ويبدو لي كما لو تحوَّل القطار الممل إلى ماكينة خياطة تخيط هذا العالَم الممزق معًا.

ومرت سنوات، منذ أن جرفتني المياه آنذاك وسط الظلام إلى حافة النهر في تلك البلدة. بينما أكبر في السن، إلا أن الأرض تزداد شبابًا وألوانًا كلما مرَّ الزمن. نجلس لنتناول طعامنا على المائدة، وأتحدث للجالسين حولها، وأسرد لهم حكاياتي وأقداري التي جمعتها خلال رحلاتي. ومن أجل أن أستحوذ على اهتمامهم، تعلمتُ أن تكون كلماتي مقتضبة. تصبح مائدتنا أكثر تنوعًا في اللغات في كل عام. الغربة مثلها مثل العصيدة المعجزة، التي

تتدفق على البلدة بأكملها، بل على قارات بأكملها. ولكن إذا أمعنتُ النظر أجد أن كل غربة مختلفة كذلك. سيكون لزامًا علينا أن نجد لها تعبيرات وصورًا جديدة. هذا الدور ستقوم به الأجيال القادمة، وبعد القادمة.

في بعض الأحيان أغمض عيني وأسمتع إلى لغات، عبارة عن خليط من قصاصات اللغات غير المفهومة، أصوات الأطفال، وضحكات الكبار. يا له من نعيم، أن تسمع فقط، ليس مهم أن تفهم المحتوَى، ولكنك تعرف أن هناك حياة، إنها صدفة الكون، وأنا أنصتُ لأصواته. أهداني المنفَى جهاز الراديو هذا، وأنا أُدير الزر. ويعلو الصوت شيئًا فشيئًا.

الشيء الملحوظ هنا هو كل ما هو غير موجود - لا توجد أي أغراض يمكن تحريكها، حتى لا يتمكن المرضَى استخدامها لإصابة أنفسهم، أو قذفها على الطبيب النفسي المعالج. يُعلِّق الموظفون مجموعة من المفاتيح حول خصرهم، ويفتحون الأبواب بسرعة، ويدلفون إلى الداخل، وبمجرد دخولهم الغرفة يدور المفتاح في القفل مرة أخرَى؛ ليغلقوا الباب بإحكام. النوافذ مسدودة ولا يُترك إلا جزء صغير منها مفتوحًا على الرغم من الحرارة الشديدة. وتبدو المصحة النفسية المغلقة كما لو كان الحراس أنفسهم يعانون من الخوف من الأماكن المفتوحة. كما لو كان الخطر يخيم على كل شيء، ويتم ترويضه من خلال الدواء والأقفال. هنا يعيش نوعان من الناس. لا يوجد أي اختلاط بينهما. فقط الأصحاء هم مَنْ يملكون المفاتيح، مفاتيح الشفاء. صوت صلصلة المفاتيح هو الصوت الوحيد الموجود بالمكان، ويقطعه بين الحين والآخر فقط صراخ كئيب. يتم جلب اللاجئين الذين قاوموا قرارات ترحيلهم إلى هذا المكان المخيف.

كان الشخص الذي أقدم على محاولة الانتحار مؤخرًا، والذي أتوا به إلى هنا، هو الشيء الوحيد على قيد الحياة هنا على الرغم من رغبته في الموت. إنه يمد ساقيه الطويلتين بعيدًا، كما يمدُّ ذراعيه نحو السماء، ويمدُّ ذراعيه نحو رقبته، ثم يميل إلى الأمام، ويتمدد

بطريقة لا يقوم بها أحد إلا في صفوف الجمباز. يراقب طبيب نفسي وممرض الشخص الغريب دون أن تطرف عيناهما. لقد قرر انتزاع حريته، دون أن يفكر في العواقب: فقد قاتل بسلاحه، وأنجب سبعة أطفال، ووزع الخبز سرًّا على المتمردين الذين أتوا إلى قريته من الجبال. تم التنكيل به، وتعرض للتهديد بالتعذيب، وباع منزله ومزرعته وكل ما يملك، وعبر عدة بلدان مع أسرته، وقدم طلبًا للجوء في منزل اللاجئين المحلي. وعندما جاء الأمر بترحيلهم إلى دولة أخرَى، اقتحمت قوات الشرطة المنزل. فأقْدَم وهو بكامل قواه العقلية على ربط حزامه حول عنقه، وأخرج لسانه لقدره مستهزئًا به. لقد أفاده ما قام به بالفعل بشكل جيد. حيث تمَّ إلغاء قرار الترحيل، وأودعوه في المصحة النفسية.

- «هل ستُقْدِم على هذا الفعل مرة أخرَى؟» هكذا سأله الطبيب النفسي المعالج.

- «فقط إذا تمَّ ترحيلي. فالإقدام على الانتحار هو ذنب كبير أمام الله.»

الطبيب النفسي المعالج شاب وسيم يرتدي قميصًا ضيقًا، يبرز قوة جسمه، ومنقوشًا عليه رسمًا لثعبان لامع على الصدر. في حين تتدلَى خصلة شعر كثيفة على وجهه حاد الملامح، ويمشي مؤرجحًا خصره داخل بنطاله الضيق. كل شيء فيه يبدو مرحًا، عدا كلماته:

- «هل تعتبر نفسكَ مريضًا نفسي؟»

- «كلا، ولكنني مثلي في هذا مثل شعبي بأكمله أُصِبنا بصدمات عنيفة بسبب الحرب.»

- «نحن لا نرى سببًا يستدعي بقاءك لدينا في المصحة.»

قالها الطبيب النفسي بلا رحمة، واضعًا يده تحت ذقنه، كما لو كان شخصًا باحثًا عن الحب، من مرتادي بارات المثليين. إلا أن المنتحر لم يكن يريد تلك الحرية، فالمصحة النفسية تُعد ملاذًا آمنًا بالنسبة له، مثلها في ذلك مثل الغابة التي لا يستطيع أحد الدخول إليها. لهذا فهو يتسول الآن من أجل الحصول على خطاب الحماية، الذي يمكنه تقديمه لرجال الشرطة، والذي يُعدُّ بمثابة فرمانًا سحريًّا، يثبت جنونه وعدم أهليته. إلا أن الطبيب النفسي المخادع أزاحه من أرضه دون أن يعطيه هديته المنشودة.

يمارس المحارب طقوس الوداع قبل أن يذهب قائلًا:

- «لم آتِ إلى هنا وفي نيتي أن أحتل بلدكم، وإنما جئتُ من أجل الصداقة. فليجازيكم الرب على كل شيء. وتفضل بقبول اعتذاري، إن كنتُ قد تخطيتُ قواعدكم، ولكن هذا كان دون قصد.»

لم تكن هذه سِوَى عبارات جوفاء حملها معه من ثقافته وبلده، إلا أن المرض قد شعر بسببها بالتأثر والخزي من بلده غير المضيافة، فقد كان يتمنَى أن يؤمِّن ملجأ آمنًا للأطفال السبعة. إلا أن الطبيب النفسي وقف ببرود وخفة. انتهت المعركة بين الرجلين.

فالمقاتل مفتول العضلات، وضعه ضعيف هنا، لهذا فهو يجرب حظه بلعب دور الضحية. وبعد هزيمته كان يتمنَى أن يفوز عندي. إلا أنني أصافحه مودِّعة إياه. سيطلق سراحه إلى الحرية حيث يوجد الخطر، حيث توجد حياته.

إلى أي مدَى مرَّت نفسي بهذا التأثير، تتحسس إحدَى يداي المقاتل الأجنبي، بينما تتحسس الأخرَى المثلي الجنس المحلي، نوعان من الغرابة تختلطان بنوع ثالث. وكأنني ألعب تنس الطاولة باللغات، والثقافات، والأجانب، وألتقط الكرات وأردها، غنية بالخبرة، وغير مثمرة في الوقت ذاته، مرنة وأتقبل مصيري كمهاجرة بكل صبر ورحمة. أجعل المرونة المكتسبة متاحة أمام القادمين الجدد، المخضرمة، التي تحمل في كل ثناياها ميزة المعرفة.

ذات يوم توقفت مارا عن مرافقتي. ماتت مارا في سيارة حمراء كانت تسير بسرعة جنونية، وانقلبت. وكانت شظايا الزجاج تلمع في شعرها الملطخ بالدماء. السائق كان شاعرًا محليًّا يرتدي سترة جلدية سوداء، أنقذ نفسه، وكتب قصيدة عن مارا الجميلة المتوفاة. أما أنا فقد ورثتُ ملابس مارا، وحضرتُ الجنازة بفستانها المفضل.

وصلت اليوم إحدَى الأمهات بصحبة ابنتها إلى معسكر إيواء اللاجئين. تمَّ استجوابهم على الفور. وعندما سألهما المحقق عن ديانتهما، ولم يحصل على إجابة، نظر إليَّ نظرة شك وارتياب، كما لو كنتُ سأقوم بتزييف الترجمة.

- «كل منا له ديانة.» قالها المحقق موجِّهًا كلامه للابنة.

- «بماذا تؤمنين يا فتاة؟»

- «أؤمن بعالَم أفضل.»

- «أنتِ إذن هنا في المكان الصحيح. مرحبًا بكِ!»